

إبداعات ١٦٥

والنار



رواية نصر عبد الرحمن

إهـــــــداء2006
ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية



إبداعات

والنـــــار

روايـــــة

نصر عبد الرحمن



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

الهيئة العامة لقصور الثقافة

إبداعات / (أسبوعية) / العدد : ١٦٥

والنار / رواية / نصر عبد الرحمن

الطبعة الأولى

التدقيق اللغوى : عادل سميح

رقم الإيداع / ٥٧٢٤/ ٢٠٠٣

I.S.B.N: 977 - 305 - 393 - 8

المراسلات : باسم رئيس التحرير

على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - قصر العينى

رقم بريدى : ١١٥٦١



المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الفصل الأول

(١)

بالأمس رأيته :

أعرفه إن تغيرت ملابسه أو ملامحه أو حتى جلده .

كان يجلس على الأرض فى ظل بيت قديم ، يستند إلى جدار سرت فيه الرطوبة ، يضرب مؤخرة رأسه فى الجدار فتنهار حبيبات الرمل الرمادى . ويضرب ويتأوه ويبرطم بكلام ملْغِز ، مفتت النهايات لم أستبن منه شيئا .

اقتربت منه وانحنيت عليه . كان مغمض العنين . وضعت يدى على كتفه وهززته برفق ؛ فتح عينيه ونظر إلىَّ وأنكرنى .

فى عينيه انكسار وحسرة ، فيهما عكارة استبدلت الصفاء القديم واللمعة المتوهجة والجلال المقيم . . جلال المعرفة . هو الغريب من ترك أرضه وأهله وتبع النداء المبهم للنار المقدسه / النور الصافى المقطر . نور يكتنفه نور ، يحيطه نور ، يغمره نور ولا يُرى على نوره سوى النور . نور يشق فرجة فى الظلمة ، يتدفق منها منسابا طليقا فوَّارا ،

يتدفق ويتسع ، يمتد ويتدفق أمواجًا تتلاحق ، وتنسكب مادته اللطيفة الخفيفة على ما بقى من الظلمة المهلكة ، فيكون كشف ويكون أمان ويكون طريق يهلك من عنه يحيد .

تأمّلنى طويلا وأنكرنى .

حكيت له عن الطبلة والتفاح والفتيات اللاتى احترقن ، لكنه هز رأسه نافيا . جلست إلى جواره ، كانت رائحة بوله واضحة ، قوية وفجة . شعره طويل مجعد متسخ ، والقشف عجينة على رقبته وخلف أذنيه وعلى ساعده الذى ظهر من شق كبير فى كم جلبابه البنى المهلهل .

حاولت معه مرة أخرى لكنه أنكرنى ، فاعتدلت واقفا وقد ضاق صدرى ، وخرج زفيرى ملتهبا.

فتح عينيه ثانية ، حاول أن يتكلم أو هكذا تخيلت . كانت شفته السفلى ترتعد . رفع كفه فى الهواء ضاما أصابعه ، شاهرا السبابة والوسطى متعلقتين فى الهواء أمام فمه . قربهما من شفتيه المنفرجتين وشفط الهواء ، حبسه بصدره قليلا ثم أخرجه . أشعلت له سيجارة ووضعتها بين إصبعيه ، أخذ أنفاسا سريعة متلاحقة ، ومن فمه خرجت خيوط الدخان هزيلة .

لما ابتعدت قليلا ،سمعت صيحته تدوى فى الشارع

الطويل النظيف الهادئ : مدد يا « أبو سليمان » . . مدد . مدد ياحبيبى مدد . لحظتها ، كانت ملامحه تتبدد ، يختفى وجهه الضخم وشعر صدره الرمادى الكثيف . تتبدد وتستبدلها صورة أخرى ، براقة ، للواقف فى مركز الدائرة ، ممتلئ الوجه لامع الشعر . تختلط الصورة بصور أخرى كثيرة ومهتزة . . متداخلة لوجوه صفراء وأرواح مسحوبة ، مصلوبة ، معلقة بين تعاشيق الخشب الأملس ناعم الاستدارات هندسى التلاقى والتفرع .

أنفاس ساخنة مختلطة بدفقات دخان « الجوزة » ، همهمات ، تنهدات . صورة أخرى لرجل يطير بجناحين ، يتقلب فى الهواء ، يصارع ما لا أرى ويحمل ما لا يستطيع . وجهه مربد ، يحمحم كالخيل ، والهواء - من فتحتى أنفه - يخرج مشتعلا . صورة لرجل يدق طبلة ويدق قلبى فأجرى لألاقيه عند أول الشارع . الشارع طويل والتفاح أحمر ، والبنت تجرى على شاطئ بحر أسود قذر جبان اتساعه خرافى . تجرى البنت فوق الرمل المبلول بألسنة الماء أزلية التقدم والانسحاب . ينطبع الكف على الرمل اللين ، تتركه البنت وتجرى ، تدور حول نفسها فيرتفع الثوب الواسع

وكذلك يشتدُّ هواء البحر ، الشمس محايدة والبنت تدور وتتطاير خصلات شعرها الناعم .

يرتفع الثوب ، تتقدم ألسنة الماء ، تتوارى الشمس قليلاً خلف سحابة ، البنت تدور ولا تهتم . تفرد ذراعيها وتستدعى هواء البحر بكفيها . مغمضة العينين ، ترفع أنفها إلى أعلى . هواء البحر جديد ، نظيف ومغسول بماء البحر .

تأتى النار بغتة . أطردها من رأسى ، فترجع وتلح وتمسك بذيل الفستان . البنت المغمضة العينين تدور وهواء البحر يؤجج ألسنة اللهب وينقلها من ذيل الثوب إلى الساق الممتلئة البضّة الريّانة ، المخروطة بدقة .

البنت مغمضة العينين وردة بلدية حمراء كثيفة الأوراق تطفو على سطح الماء مشتعلة ، تهتز بفعل الموج الرجراج . هواء البحر المغسول بماء البحر ونار البحر يحمل رائحة الياسمين ، ورائحة الياسمين ترسم فى الهواء كفا . أعلى جلد ظهر الكف الأملس رسمت وردة بالأزرق الباهت بين السبابة والإبهام ، ما تلبث أن تبهت وتصير ندبة : جرح قديم لم يلتئم بعد ،وموسىَ يشق الجلد عند المعصم.

في هذه اللحظة ، ربما قبلها بقليل ، سمعت صيحته، أقصد صداها . . يتردد . كانت بطيئة مفككة ، متكررة ، متوالية وكثيرة . كل واحدة تتبع الأخرى أو تأتى معها أو قبلها بقليل . كانت صيحة مكتومة وثقيلة .

(٢)

درت سبع مرات أقرأ الفاتحة همسا ، جدتى - قابضة على معصمى - تسحبنى ، أكف وأجساد - من الخلف - تدفعنى وتحثنى على إسراع الخطو ، لكن كفى الحر تشبث بالسياج حلو الرائحة المنصوب حول قاعدة مستطيلة الشكل مغطاة بحرير أخضر رصين مطرز بخيوط ذهبية تتماوج تحت الضوء الأبيض الشاهى الضاغط للقناديل الكثيرة التى تتدلى من السقف ، والضوء البيضاوى الأصفر للشموع الطويلة المصفوفة بانتظام على حافة السياج .

- مدد يا أبو سليمان .. مدد .

دورة أخيرة ، أستسلم فيها للأجساد التى تتحرك وتدفعنى فأتحرك . أستسلم كذلك لرائحة البخور الطاغية التى تتماوج حولى وتدفعنى بعيدا .. بعيدا ،حيث كل شىء يهتز ويتوتر .

أجساد متراصة مترهلة تتحرك بنظام هش . صفوف . دفوف . رايات . عناقيد نور حمراء خضراء زرقاء .

- مدد يا صاحب المدد .

جدتى تضع فى كفى نقودا لأضعها فى صندوق صغير أخضر وُضِع عند الباب ، وكتب عليه «لا إله إلا الله » بخط مهتز . يسيل اللون الأبيض ، يهرب من الحروف .. يتراكم .. يصير طاغيا كرائحة البخور ، وحركة الواقفين بصحن الجامع ، ووعد جدتى بأن تشترى لى خرطة بسبوسة وخرطة هريسة ، تلك التمتمات الخاشعة التى تحولت إلى أزيز مكتوم ، متقطِّع ، هادر، فوار ،حار ومجوف .

- مدد يا حبيبى .. مدد.

عن جدتى أنَّ أباها ذهب إلى سوق بعيد وتأخر هناك حتى قطع الظلام طريق عودته بين الحقول . خاف من أصوات تحملها الريح إليه ، خاف اللصوص وساكنى الأشجار والسواقى المهجورة ؛ نادى بكل عزمه وعزيمته على « أبو سليمان » ، وعده بدستتى شمع فكان ساعتها أن سمع صدى صوته ، ورأى ثورا أبيض دون إشارة .

حمله وطار به فوق الحقول والترع والبحر الكبير . رأى - بعينيه - الذئاب تتقافز فى الهواء علها تمسك به ، سمعها تعوى غيظا ، كما سمع ساكنات الأشجار والسواقى

المهجورة يصرخن ويضربن صدورهن حسرة . لكن الثور الأبيض أسكت الجميع حين قال :-

نصيبكم سيأتى إليكم .. هذا نصيب سيدى « أبو سليمان » .

لم يتركه إلا فوق السرير ، ينتفض من ضربات الحمى . وفى الصباح ذهب إلى خادم المقام وأعطاه ما يشترى به دستتى شمع وكسوة .

(٣)

أخافه

له رهبة وهيبة . أتخيله - دائما - بوجه كبير أحمر ملىء بنمش بنى وأصفر . له لحية بيضاء كبيرة متناغمة مع الوجه والشارب .

طويل هو ، يرتدى جلبابًا من الصوف الرمادى بفتحة تدور حول الرقبة ، وتنزل إلى الصدر فتكشف شعر صدره الأبيض الهائش.

يقف له الرجال حين يمشى ، ينزلون من فوق الحمير إذا ما لمحوه قادما من بعيد ، يلقون التحية بابتسامة وانحناءة . إن تعطف ووقف ركضوا إليه ليقبلوا يده المباركة.

يده المباركة تمسح على جبين المريض فيشفى ، تمسح على بطن الحامل فتكون ولادتها سهلة ووليدها مباركًا ، طيب العيشة .

يده المباركة تختم العجين فلا يحترق فى الفرن رغيف ، ولا يقترب النمل من الخبز الذى يكفى رغيف واحد منه لإفطار خمسة رجال .

هادئ جدا ، عيناه خارقتان ، نافذتان . ينظر إلى السماء ويتمتم ، يرفع يديه إلى أعلى فيظهر وشم على ساعده الأيمن لأسد يشهر سيفا ، ونجوم وأفلاك منتظمة فى دوائر متقاطعة .

طيب هو ، لايبتسم ، لكن هالة ضافية من الأبيض الشمعى الوهاج - تكاد تمسك - تحيط وجهه ويديه .

عن خالى أنه لما توقف بسيارته ليتبول جوار شجرة كبيرة فى مكان مهجور ، تناهت إلى أنفه رائحة غريبة ، وعلى البعد لمح ألسنة لهب زرقاء داكنة ثم سمع صرخة سحبت روحه إلى قرار سحيق .

قرر - هو المتهور - أن يذهب إلى مكان النار ليعرف ما يحدث ، ولكن فرعًا من فروع الشجرة تحول إلى يد كبيرة ، دفعته برفق إلى الخلف ، ثم سمع صوتًا رفيعًا حادًا لفتاة صغيرة تقول : شوف يا ابنى ، لو شميت الريحة دى تانى فى أى مكان أوعى تقرب منها . إنت طيب ودول ناس أشرار . امشى من هنا بسرعة ، وسلم على « أبو سليمان » .

عن جدتى أنه وصل إلى البيت ينتفض ويتصبب عرقا . وفى الصباح قام من نومه « أحمر دم » ، جسده ينتفخ إذا ما لمسه أحد .

أسبوع كامل يتقيأ دما ، ويضرب بكفيه على الحائط والشبابيك لكى يطفئ نارًا يراها ولا نراها . وأنه لم يعد كما كان إلا بعد أن صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمقام حيث بات ليلته .

يقول إنه رأى رجلا شديد بياض الثياب ، شديد بياض الشعر واللحية . مسح بيده على رأسه - رأس خالى - وجبهته ثم قال : السلام أمانة ، والأمانة دين فى رقبتك حتى تصل إلى صاحبها .

(٤)

توقفت عن اللعب لما سمعت صوت الطبلة يأتى من بعيد . ذات النقرات التى أحفظها تك .. تتك تك .. تك .. تك تك .

عرفت أنه فى شارع الشونة ، يمشى بهدوئه ساحبا حماره الأبيض صغير الحجم . يضع على ظهره قفصين من جريد، بين كل جريدتين صف تفاح صغير الحجم على كل واحدة منه طبقة حمراء سكرية تذوب فى الفم فور اختلاطها باللعاب . كل تفاحة مغروسة بقطعة صغيرة من الجريد .

كان يعطينى أكبر تفاحة لديه ، وأحيانا يعطينى اثنتين ولا يأخذ القرش منى . كان يترك لى الطبلة أضرب عليها بقبضة يدى فيخرج الصوت قويا مرتبكا فأضحك .

أول مرة رأيته كان يسير فى الموكب ، فى الصف الأول خلف الحصان وحملة الرايات . يمشى الهوينى ، مغلق العينين ، دائم التمتمة والعبث بلحيته الرمادية غير المسبوكة على وجهه الطويل غليظ الملامح .

عندما وصل الموكب إلى المقام ، خلع عمامته فانسدل شعره طويلاً لامعًا - رغم الشيب - على كتفيه ، ثم خلع بقايا البالطو الأسود الواسع المفتوح دوما وطوّحه فى الهواء مرتين ، بعدها ألقاه إلى أعلى وتركه يسقط على الأرض .

رأسه إلى أعلى ، يديرها يمينا ويسارا وكأنما يستمع لخبر يأتيه من السماء . بعد صمت طال صرخ : حىّ . . مداااد . يا « أبو سليمان » مدد . . ياحبيبى مدد.

قالها بكل روحه وجسده . الطفل الصغير التائه فى الظلمة الحالكة باكيًا ينادى أمه البعيدة . مشطورًا ، يمشى فاردًا ذراعيه أمامه خشية الارتطام ، والنداءات المحمومة تتكسر على حافة المجرة . تذهب ولا تعود . لكن الوحيد المهضوم يصرخ طالبا المدد : صدر صغير وأغنية ويد تهدهده حتى ينام فيلتحم بالنور ، النور الأصل الكل اللامقسوم وغير القابل للانقسام .

تلبية النداءات من الواقفين الضارعين حوله فى حلقة كبيرة . هو المركز وباعث الحركة .

الحركة تبدأ هادئة ثم تزداد قوةً وتوترًا وعنفا . يحرك جذعه وذراعيه إلى اليمين ثم إلى اليسار ثم إلى اليمين حتى يشتعل وجهه بحمرة وهاجة وتكون حركة الجسد انسيابية

وصارمة فى ذات الوقت . كافورة تستعذب استسلامها لرياح تهب من آخر حدود الكون.

كانوا مِن حوله يسقطون الواحد تلو الآخر ، أما هو فيبقى فى رقصته الأبدية محلقا فى سماوات أخرى . يصعد ويصعد ويصعد ويخلص من جسده ، يكون شفافًا نورانيا .

(٥)

قالت جدتى : كان يا ما كان ولا يحلى الكلام غير بذكر النبى عليه الصلاة والسلام . . كان فيه ملك ولاملك إلا الله . . .

ساعتها تتأسس الحكاية برأسى وتبنى بأسرع من كلماتها الهادئة اللدنة .

دفء الحجرة وصدرها وحركة أصابعها فى شعرى وظلال ضوء اللمبة الخافت ترسم جبلا ، أعلى الجبل قلعة بسور من حجر كبير أبيض جيرى . للقلعة بوابة ضخمة سوداء أخشابها ألواح متراصة ومضمومة إلى بعضها - بنظام رخو - بألواح عرضية عريضة مثبتة بمسامير من خشب طمر رءوسها التراب وجعلها من ذات النسيج الكلى للأخشاب الضخمة .

أشم رائحة الزمن والموت .

وجهان لعملة معدنية تطير فى الهواء ، تتقلب كثيرا قبل أن تسقط وتقفز قفزة صغيرة أو أخيرة .لا تستقر الرأس

بعدها فوق الجسد ، بل تطير وتبقى الكتابة على الجدران الغليظة العتيقة لا تمحى ، فقط تبهت قليلا .

حركة واحدة فى الهواء ، زائدة أو ناقصة .

على السور أبراج عالية تتدلى منها رءوس كثيرة ، رءوس فقط بها عيون محدقة أبدًا للأفق البعيد ، وشفاه منفرجة تظهر الأسنان والهلع . على أطراف الرقاب خيوط دم منعقدة ، صارت داكنة فظة الرائحة تضربها الشمس فتشعلها .

على البعد تقف الغربان وقورة الحزن تنظف مناقيرها الوردية رشيقة التكوين فى التراب . تتقافز بمرح فى انتظار جولة جديدة بعد أن يهدأ الحارس النشط دءوب الحركة ، والذى يمشى فوق السور العريض بين برجين ، يوزع نظراته فى الاتجاهات الأربع ، ونصل رمحه يبعثر أشعة الشمس - اللامبالية - فى كل الاتجاهات وينحدر بها إلى السفح .

- وكان للملك بنت اسمها . . .

شهرزاد ، ست الحسن ، فاطمة ، نعمة ،صفية . المهم أنها أميرة وطيبة . متعة للناظرين إذا نظروا . شعرها إلى الكعبين ، وخداها رغيفا خبز ساخنان ما زالا يبخران . شفتاها فصا برتقال .

- أنا جعان ياست .

- هاكمل الحدوتة وأجيب لك تاكل .

- لأ أنا جعان .

أقضم رغيفًا ملفوفًا - بإحكام - حول ملعقة كبيرة من مش غليظ القوام ، بينما الشاطر محمود أقصد حسن عند السفح يفكر ويدعك ذقنه - التى بدأت الشعيرات الصفراء الخفيفة فى النمو عليها - براحة يده الخشنة التى تركت الفأس لتوها .

كان ينظر ناحية الشمس ، والشمس تشرق من الشرق والشرق جبل فوقه قلعة لها سور ، وعلى السور أبراج وحراس ، وفى أيدى الحراس حراب وحول خصورهم أحزمة بها أجربة لسيوف تقطع الرءوس ، والرءوس تتدلى من أطراف الأبراج .

فى ذات اللحظة ، ربما قبلها بقليل أو بعدها بقليل ، كانت الأميرة تنظر إلى الغرب ، فى اتجاه السفح حيث البيوت والأشجار - البعيدة البعيدة - علب صغيرة مدورة فى أرض الله الشاسعة .

نظرتها بأجنحة ، تطير إلى الأفق البعيد ، تحلق فوق

السفح دون رفرفة ، وترى - بخيالها ربما - الشاطر وقد جمع عرقًا تفصَّد فوق جبهته بسبابة يده اليسرى . تتساقط القطرات الملحية كثيفة الكتلة ملضومة الواحدة بالأخرى ، ثم يلتقط الفأس من جديد ويضرب وجه الأرض ضربات واهنة ويعض - بأسنانه - شفته السفلى .

فى اليوم التالى هبط بستانى القصر العجوز إلى السفح بحثا عن مساعد له ، قرر ذلك بعد تفكيرطويل و عميق . وفى نفس اللحظة ، كان الشاطر حسن أقصد محمود على شاطئ الترعة . يمسك البوصة وينظر إلى الغمّاز الطافى وانعكاس أشعة الشمس على الماء بطىء الجريان .

بحث البستانى عن ولد صغير السن مفتول العضلات ساهم الطرف دءوب لا يمل من العمل ، عفوف النفس لا يتطلع إلى حريم السلطان فيجر المشاكل والمشاكل تقطع الرءوس . قرر - بينه وبين نفسه - أن يعامله كولد لم ينجبه ، يقاسمه اللقمة والفراش والقبو الضيق الرطب المعتم .

طال البحث وطغت الشمس ولم يجد بغيته بعد . ظلل جبهته وعينيه بكفه وتطلع إلى الأفق البعيد الخالى من البشر فاصطدم بصره ببيوت القرية .

فكر مرتين فى الذهاب إلى هناك ، لكن الخوف والحذر رسم صورته فى الهواء مضروبا ببراطيش الرجال وحجارة الأطفال وقباقيب النساء .

جلس يفكر للمرة الثالثة : العمل فى بساتين القصر لاينتهى ، الجسد هرم والساعد ارتعد ، أريد المساعد الساعد الولد ، الحقول خاوية ، ملابسى سوف تشى بى عند أهل القرية وأكون كبش فداء للسلطان ، والمماليك يحتاجون الفتيان لأعمال الحرب والوقت يمر .

فى ذات اللحظة ، كان الشاطر يغزل الوقت صبرا على شاطئ الترعة .

وفى ذات اللحظة ، كانت الأميرة تغزل الصبر يمامة بجناحين قويين تصعدان بها إلى السماء التى ليس لها أسوار عليها أبراج تتدلى من أطرافها رءوس .

(٦)

- صفية نار

هكذا قالوا بعد أن انتهت كل النكات الجديدة والقديمة ، والحكايات القديمة عن العفاريت وأم الشعور . لم أفهم حديثهم عن صفية ولم أدرك كيف تكون البنت نارا .

قال عبد الكريم أن عينيها الزرقاوين (وِلْعه)وأن رجليها نار ، ثم ضرب جبهته براحة يده كمن نسى شيئا . لكننى تذكرت يوم ذهبت إلى دارها لأحضر كوب زيت لجدتى . كانت تجلس وحدها على الحصيرة فى ركن الصالة ، والضوء المنسرب من الشراعة شبه المفتوحة شحيح بينما كان صوتها طيبا حين طلبت منى أن أنتظر قليلا حتى تضفر شعرها المحلول . بعد أن أشارت إلىّ بالجلوس إلى جوارها .

كانت تغمس أسنان المشط فى الجاز ثم تمرره فى شعرها الطويل الكثيف الناعم الأحمر . حمرة غريبة

متقلبة ، تختلف كثيرا عن لون قميصها الذى ظهر بوضوح من تحت جلبابها البيتى المحبوك بسبب جلستها متربعة .

المشط يمر فى شعرها بسرعة ونعومة فيزداد شعرها توهجًا وبريقا . وقتها لم أنفر من رائحة الجاز ، بل اقتربت منها أكثر لأتابع حركة أصابعها السريعة المدربة وهى تضفر شعرها . بعدها ربطت الضفيرتين خلف رأسها ثم عصبته بإيشارب أبيض به زهور حمراء كثيرة .

صفية تسأل عن أخى كثيرا ، تسأل عن أخى بلهفة مخلوطة بمرارة . أنظر إلى عينيها الساحرتين وهى تحذرنى من الحديث مع أحد عن سؤالها الدائم اللحوح .

كانت تسألنى عليه باستمرار وتكثر القدوم إلى دارنا فى الأجازات . أعرف ابتسامتها العريضة المشعة حين تراه .

ابتسامة تنير الدنيا وتظهر فلجة بين السنتين الأماميتين الكبيرتين ناصعتى البياض . ابتسامة تختفى حين يغيب وتستبدلها ضحكة رنانة مفتعلة ، ينقبض قلبى حين أسمعها .

كان يصعد إلى السطح فور وصوله ، يأخذ حفنتى غلة وصفيحة ماء للحمام . وحين أصعد إليه يطلب منى أن أشترى له سجائر أو أبلغ إبراهيم بحضوره وأحضر له

الشاى . . أى شىء لأتركه وحده على السطح ، لكننى - وقبل أن أنزل - أكون قد لمحتها على سطح دارها فأحس أن شيئًا خطيرًا يحدث . خاصة وأننى أطعم الحمام وأسقيه كل يوم ولا يستغرق الأمر كل هذا الوقت .

هى تلح فى السؤال ، وأنا أشتاق إلى جلسته وحديثه وقروشه وصديقه سامى .

الفصل الثانى



(١)

عن جدتى أن خادم المقام لما تشاجر مع إخوته ، ضاق صدره ومشى فى الغيط وحده ليلا فلم يسترح . فكر أن يبيت ليلته جوار الضريح ويتركهم للهم والانتظار .

يقول أنه لما فرد جسده على الحصيرة هدأ وانسحب ضيقه ، وأسلم إلى دومات من الومضات الفضية . ثم أفاق على وخزة فى جنبه الأيمن ، وسمع صهيل خيل كثيرة، وقرع طبول ، وهسيسًا يسحب الروح صادرًا عن احتكاك الصاجات بعضها ببعض.

أحس بتيار من الهواء الساخن عند رأسه ، نظر إلى أعلى . . فإذا بحصان أبيض حليب نزل من فوق صهوته فارس طويل حسن الصورة ، مسح على صدره وقال له : نم فى بيتك يا رمضان وسوف ينصرنا الله فى حربنا معهم .

ساعتها سمع صياح الديك فانتظر صلاة الفجر . صلاه ثم عاد إلى داره منشرح الصدر وقرر - وهو الفقير - أن يخدم المقام دون مال .

ونحن عيال ، كنا ننسى اللعب وصيد السمك وصيد العصافير ليلتها . نجرى بين كتل البشر الذين يتوافدون علينا من كل البلاد ، المجاورة والبعيدة .

نجرى بين العائلات الجالسة فى حلقات حول المسرح الخشبى الكبير المعد للمنشد بالليل .

وكنت أرفض عروض النساء الكبيرات البدينات لكى أشرب شربات أو عصيرًا يوزعنه فى صحن الجامع .

مرة واحدة هى التى شربت فيها عصير برتقال بماء الورد . كنت أطالع الوجوه كى أختار دراويش ليأكلوا - كعادة كل عام - فى دارنا .

وقفت فانزلقت عينى على سيدة تجلس وحدها ، ترتدى جلبابا أسود ، لكنه بخلاف ما ترتدى النساء فى بلدنا ، منقوش ومطرز . وجهها أبيض ، ملامحه كبيرة متناسقة متناغمة آسرة . كحل عينيها ممتد إلى ما بعد العين كصورة امرأة على رأسها تاج فى كتاب من كتب أخى القديمة .

أطلت النظر إلى وجهها ، حاولت ألا أنظر فلم أستطع . نظرت هى إلىَّ أيضا ، فلم أنظر إلى الأرض أو إلى سقف الجامع ، بل إلى عينيها .

ابتسمت وأشارت إلىّ بيدها أن أقترب . بيديها ضمتنى إلى صدرها ، وقبلت خدى ورأسى ثم ربتت على ظهرى . تمتمت بحرارة وضمتنى إلى صدرها ثانية ، ولكن بقوة .

أحسست دفءًا وراحة ،وشممت رائحة ذوبتنى وأنهكنى البحث عنها بعد ذلك .

- اسمك إيه يا حبيبى . . مكسوف منى . . تشرب عصير ؟ يارب دايما مع المنكسرين جابر . . يارب . . هيه .

يقولون من نسل الرسول ، عاش فى الشام ، واختار بلدنا دون سائر أرض اللّه ليدفن بها . جاء من زمن بعيد . . جاء طائرًا . كان كفنه الأخضر يقرقع فى الهواء . والناس على الأرض أنهكهم الجرى والتكبير والتهليل، يتساقطون واحدًا واحدًا .

يقولون طار فوق مصر كلها قبل أن يحط هنا ويرقد رقدته الأخيرة . ويقولون أيضا إن أهله تبعوه من بلد إلى بلد ، ولما علموا أنه عندنا جاءوا وحاولوا هدم القبر وإخراجه ليأخذوه معهم . لكن الفئوس والعصى بأيديهم تحولت - ساعتها - إلى ثعابين ضخمة هائجة طاردتهم حتى طردتهم من البلد .

تقول جدتى إن كل الثعابين التى تسكن البرج المهجور هى من نسل تلك الثعابين التى كانت فى الأصل عصيًا وفئوسا ، وأن من يؤذيها يغضب سيدى « أبو سليمان » .

يقولون أنه بعد ذلك بزمن ، رآه عبد الهادى باشا فى الحلم مرات . طلب منه أن يبنى له مقاما جديدا ومسجدا . ولما تكاسل - لبخله - مرض مرضا غريبا ألزمه الفراش ولم يستطع الأطباء الذين أحضرهم من كل الدنيا أن يعرفوا مرضه أو علاجه .

يقال إن شيخًا صالحا سعى إليه وأخبره أن سيدى « أبو سليمان » غاضب منه وإنه سيشفى - بإذن الله - عندما يبنى المسجد والمقام .

بينما يقول سامى صديق أخى الذى يأتى معه كثيرا فى الأجازات أنه ليس من أولياء الله ، ويضيف أخى أنه مهندس رومانى ، وكان قد أحضره الباشا - زمان - لكى يبنى له السرايا ، وماكينة طحين ومسجدًا بدلا من المصلى الذى يصلى فيه الفلاحون على شاطئ الترعة .

وقتها استغرب القاصى والدانى ، كلهم ضرب كفا بكف ، لأن ذلك الإفرنجى أصفر الشعر والشارب ، أزرق العينين يبنى بيتا لله.

كان أهل البلد يذهبون إلى طرف البلد لكى يشاهدوه بملابسه الغريبة وطاقيته ذات الحرف العريض المستدير التى لا تفارق رأسه . وكانوا يضحكون من برطمته حين يحاول تفريق جمعهم . كانت الكلمات تخرج من فمه سريعة هائجة وكان وجهه يشتعل بالحمرة وهو يشيح بيديه ويسبهم ببعض الكلمات التى تعلمها .

أحبه أهل البلد لأنه أصلح ماكينة رى قديمة ، وجبَّر ساق أحد عماله عندما سقط من فوق السقالة . كما كان لديه أقراص ومراهم كثيرة تعالج كل الأمراض كالسحر . لم يكن يبخل بها على أحد . كما كان يدعو أهل البلد إلى استراحته ليسمعوا أدوار أم كلثوم والشيخ صالح ونادره .

يقال أيضا ، إنه تشاجر مع عبد الهادى باشا بالفرنسية ، وأن الباشا كان غاضبا من كلام قاله للفلاحين بلغته العربية « المكسرة » وأنه كرى عليه شقيًا . كان شهيرًا أيامها اسمه « سلطان الدمناوى » ضربه عيار فى عز الظهر الأحمر فسقط من فوق السقالة ونزف حتى مات .

يقولون أيضا إنه لما مات حمل الناس جثته دون كفن وذهبوا بها إلى قصر الباشا ، ولكنه كان قد هرب إلى الإسكندرية .

وأنه بعد حوارات طويلة ، قرر الجميع أن يُغسل ويُكفن كما يُغسل ويكفن المسلم وأن يدفن فى الجامع الذى بناه .

تقول جدتى إن أخى لا يعرف شيئا وأن صديقه كاذب . بعدها ، سكتت وحملقت فى الجدار كأنما تقرأ شيئا أو ترى مالا رأى .

قطعت صمتى وصمتها بصوت واهن خجول وقالت كأنما تحدث نفسها : صحيح كان فيه مهندس أفرنجى هنا فى البلد . . من زمان . .

عادت إلى صمتها فلذت بصبرى ، وتشاغلت برسم دوائر بسبابتى فى التراب علها تكمل طواعية .

طال صمتها وألحت أسئلتى على . .

– وبعدين ؟ إيه اللى حصل .

– مات . . ضربوه بالنار .

– ليه ؟

– عشان كان بيحب . . .

– بيحب مين ؟

– واحده .

– من هنا من البلد ؟

- . . . . . .

- وبعدين ؟

- أهلها ضربوه بالنار .

- يعنى هو ده أبو سليمان ؟

أجلستنى فى حجرها ، داعبت شعرى بأصابع كفها اليمنى ، وباليسرى ضمتنى إلى صدرها بقوة ، وقبلت جبهتى .

بين يديها ، أهتز باهتزاز جسدها ، أسلم نفسى لهذه الحركة اللدنة الرطبة الهلامية . أصير رخوًا وسائبا كمن يطفو على ماء قراره عميق . كل الكون صوت شهيقى وزفيرى ودقات قلبها والورود الحمراء على صدر جلبابها .

من بين الأحمر الصاخب يخرج هو ، بملابسه الغريبة وسحنته الشقراء وابتسامته المرحة ، يركب حصانا ضخم الجرم ، أحمر ، بعرف كشعلة نار وشعر طويل ومقصوص بانتظام ، ينسدل على ناحية من رقبته الممتلئة . يتجه إلى طرف البلد إلى الصفصافة ، يحيى كل من يقابله بكلماته ذات اللكنة الغريبة . مستندا إلى الصفصافة ، يتطلع إلى البيوت على مرمى البصر ، يتابع بقايا الشمس والطريق .

ينتفض لما يلمح شبحا قادما ، تنصهر ملامحه مع غبشة ضوء الغروب الرصاصى اللامع . يعصر العصا التى بين يديه ، ويلقى بها مع أمنيته لماء الترعة الجارى ، ويفتح صدره لبوادر هواء الليل المحملة برائحة الحقول وعبقها .

ميزها تماما ، فاستقر الفرح بصدره .

(٢)

تضغط على هذه الاستراحة القديمة بطرازها الأوروبى ، وجدرانها الصفراء الباهتة التى لم تستسلم للزمن تماما ، وشبابيكها الضخمة البنية المغلقة دوما ، وكذلك حديقتها الصغيرة المهملة المهجورة المليئة بالحشائش والغاب الرومى والأشجار الشوكية التى تمتلئ أشواكها بأجساد عصافير وكتاكيت ، مغروسة بإحكام .

لا أحد يلتفت إليها ، لا أحد ينظر إلى أشجارها غريبة التكوين . كهف أسرار هى ،دغل أسطورى رهيب . مخيفة ، موطن الجن ومسكن الثعبان حارس الجوهرة والمقام .

إذا ما اقترب أحد من الاستراحة أو أراد المقام بشرٍّ يهب واقفا على ذيله الضخم ، فيكون ساعتها بطول وحجم نخلة .

يخرج النار من فمه بحجم برج الحمام .

يقول الواد سيد عن جدته إن اسمه «عمار» وفى بطنه

جوهرة كبيرة يخرجها ليلا لتنير له الطريق . يقول إنه يضعها في فمه أثناء سيره ، وأنه يطير - إن أراد - بجناحين من الجلد يخفيهما تحت بطنه .

(٣)

مشدوهًا جامد الأطراف أنظر إليه ، أخاف أن يسقط . سقطته لن تكون كالآخرين بل أشد إيلاما . من طينة أخرى هو ، بل ربما ليس من أى طينة على الإطلاق .

يهوى الجسد وينتفض بعنف ، يختلط بتراب الأرض . ثم تهدأ تشنجاته السريعة المتوالية وتحيطه هالة من النور أشِعتها قوية حادة مسنونة ما تلبث تتشكل طائرا بجناحين . أتابعه حتى يصعد ويختلط بالسحاب ويعود .

اختارنى من بين كل العيال . تقدم نحوى فلم أجرِ مثلهم .

- خايف ؟

- لأ .

- ليه ؟

لم أرد ، فوضع أصابعه تحت ذقنى ورفع وجهى لأنظر إليه . كانت أشعة الشمس تتكسر على رأسه الكبيرة . نظرت إلى عينيه الزرقاوين فضربتنى رهبة .كدت أجرى ، لكن

شيئا ما - فى عينيه - جذبنى . تراجعت خطوة فأمسك كفى بكفه الغليظ الممتلئ وأمسك جبهتى بسبابته وإبهامه وقال محذرا :

-أوعى حد يعرف حاجه من اللى هتشوفه .

فرد كف يدى اليمنى وأخرج زجاجة صغيرة من سيالته ، وضع نقطة زرقاء زيتية طيبة الرائحة . نظر فى عينى وسألنى : شايف إيه ؟

نظرت إلى نقطة الزيت فأحسست أنها تتمدد وتتسع وتزداد صفاء . ثم .. ثم رأيت دخانا كثيفا شديد البياض يتداخل ويرتفع بسرعة ثم رأيت نارا كبيرة تشتعل فى بقايا شجرة . من النار تخرج فتاة عارية شعرها يشتعل ، تخرج وتقفز فى بئر ساقيةكبيرة . أشجار كثيرة تتهاوى وترتطم بالأرض فتشتعل والفتيات يخرجن محترقات ويجرين نحو الساقية وأنا أطاردهن بكل قوتى لكن صوت النار يردنى . جبل من اللحم الوردى الأملس يشتعل وألسنة لهب تتصاعد خضراء وزقاء وحمراء قانية ، والدخان يزداد كثافة وسوادا .

- ابحث عن شجرة لم تحترق بعد .

شجرة قصيرة فروعها كثيفة ومتفرعة كمظلة ، شجرة لم

أر مثلها من قبل . تقف وحدها عند سطح جبل عال شديد الانحدار ، على قمته صخرة كبيرة على شكل طائر . أنهكته رحلة طويلة فسقط على سلك شائك . طائر أبيض كبير غسله ماء البحر .

جناحاه مفرودان إلى حدهما الأقصى ، ورقبته الطويلة ملقاة على صدره ناحية اليمين وساقاه تلامسان رمل الصحراء بالكاد . إلى جوارها وجه سيظل مطبوعا بذاكرتي وسوف أتقلب بين الوجوه حتى أجده .

(٤)

خيوط دموية داكنة حمراة متداخلة أحاطت زرقة عينيها وهتكت الصفاء الحقيقى ، شديد الوطأة علىّ .

صفاء يلسعنى فلا أستطيع النظر إليه طويلا .

كانت تجلس على الأرض وحدها ، تسند رأسها وجنبها الأيسر إلى سياج المقام . الطرحة السوداء انزلقت عن رأسها وكتفيها ، وتكوّمت بكتلتها الخفيفة إلى جوارها فظهر الإيشارب الأحمر الذى يعصب رأسها بقوة .

كانت تعض كف يدها اليسرى كى تكبح الصراخ وتحوله إلى نهنهات مصمتة مكتومة يهتز لها الجسد ، تتحول إلى تمتمات مبهمة خاشعة وحارة ، تنفذ إلى القلب وتوجعه.

أصابع كفها اليمنى تنفذ فى تخاريم السياج الخشبى المربعة والمثلثة هندسية التداخل . عاشق ومعشوق وأرض للعشق / جمرة يحترق فيها البخور والعنبر ببطء ويصّاعد الدخان / العطر إلى الأعلى ، راسمًا الولد والبنت وصفصافة فروعها رفيعة مترهلة ، رخوة كثيفة ، عازلة .

كهف يمنع حرارة الصيف ، يرشح نسمة الهواء ويرد نظرة الفضولى المتطفل .

- إزيّك .

قالتها بصوت بارد مبحوح وهى تحكم لف الطرحة حول رأسها . لم تسألنى - كالعادة - عن الغائب ، أو تضمنى إلى صدرها . كانت متجهمة ، صفراء الوجه ،

أين بهاء حمرة تفاح خديها ؟!

أين لهفة السؤال المعجون بقلق متراكب وعميق ؟!

مضت وتركتنى وحدى فى الغرفة الصغيرة القديمة المكتظة برائحتها ورائحة البخور العتيق الباقى ، والأنفاس الحارة لأناس كثيرين عذاباتهم غامضة وأنينهم -رغم السنين - باقٍ فى جنبات الغرفة ، على الجدران ، على السقف ، على السياج وفى الفراغ الكثيف يحوِّم .

جاءوا تمزقهم الغربة والعوز . مجروحون ، جراحهم غائرة تقطر دما ساخنا سريع التدفق .

الأرواح المنهكة تتساقط على عتبة الغرفة ، وتتكسر على حافة السياج أكثر وأكثر .

يطلبونَ ماذا ؟

لا أعرف ربما هم أيضا لايعرفون ، فقط يلهجون بالدعاء . التمتمة دمدمة والعيون المسبلة الخاشعة تطفر بالدمع . بالصدر صديد تجمع واختمر وضغط الجلد باحثا عن مخرج ، يحاول والمحاولة تحمل الألم الذى لايطاق . ينهش ويتضخم ويدفع ، ويشيع فى الجسد الحمى . فيكون عرق وألم ومحاولة جديدة ، لكن الجلد صلب لم يلن بعد رغم احمراره .

مشرط الجراح أنت . بلمسة واحدة وخفيفة ، تطلق اللهب المحبوس ، وتتسرب المادة الصمغية وتنطلق معها رائحة العفن . ضغطة واحدة وخفيفة ، يختفى كل شىء ، يتبدد كل ألم وتلتئم فتحة الجلد من جديد .

كان الولد مرتبكًا ، يتردد فى رأسه سؤال : لماذا هى هنا ؟ لمذا تبكى وتخفى دمعها عنى ويخرج صوتها إلىّ محايدا قاتلا ؟!

لماذا تفعل ما يفعل الغرباء وقبل أن تخرج تضع يدها فى صدرها وتخرج منديلا من القماش تفك عقدته بأسنانها وتخرج قطعة معدنية تضعها فى الفتحة الضيقة أعلى الصندوق فيخدش صوت ارتطامها قدسية السكون .

اندفعت إليه وأمسكت خشب السياج وأغمضت عينى على وجهها الممتقع .

-لم أطلب منك أى شىء من قبل ، ولا أعرف ما تطلبه منك لكن كل ما أريد الآن ، ألا أراها تبكى مرة أخرى . أريد ابتسامتها التى تنطلق رغمًا عنها وعنى عندما يعود الغائب .

الفصل الثالث



(١)

تقول جدتى أنه يوم مات خالى أحمد ، كانت فوق السطح تحضر حطبا للكانون . أطالت النظر إلى قبة المقام الخضراء ، وأحست بألم شديد فى بطنها ، زحف الألم إلى ذراعيها وقدميها ورفت عينها اليسرى ؛ فتذكرت بومة كانت تنعق ليلة البارحة .

سقط الحطب من بين يديها ورأت الكون أصفر ، أصفر تماما ، كما رأت سحب السماء سيارات تجرى بسرعة على الطريق وتصطدم بعضها ببعض .

صوت الارتطام دمدمة تخلع القلب وترجف المفاصل .

يومها ، ظلت تدور فى الدار كالفرخة المضروبة على رأسها . بعد الغذاء جلست وحدها جوار الفرن وأسندت رأسها إلى الحائط فغفلت للحظات رأت فيها « أبو سليمان » قادمًا نحوها وبين يديه حزمة حطب وقال : حزمة الحطب دى أمانة عندك . تركها وعاد بعد فترة يطلب حزمة الحطب ، فضربت صدرها بيديها وقالت : أحمد ؟

وقال : أنا عاوز حزمة الحطب ، الحطب بتاعى ، واحد جاب حاجة وخدها .

هبت من نومها فزعة على صوت بكاء وصراخ وولولة . كان أحمد ، لكنها تذكرت ما سمعت منذ برهة ، وكتمت حزنها بصدرها واستسلمت لقضاء الله راضية . لكنها كانت تتمم : ياكبد أمك ياحبيبى .

لم تزد عليها ولم تذرف دمعه .

(٢)

لم تكن الشمس قد اقتربت من الأرض بعد ، كنت أركب الحمار عائدا إلى الدار كى أخضر الغذاء . والحمار يعدو بسرعة - كعادته - فى طريق العودة . يضرب الأرض بحوافره فيثير دفقات صغيرة من التراب . وظله يتحرك بسرعة ويتكسر على الأشجار على جانب الطريق .

الهواء يواجهنى قويا ويدفعنى إلى الانحناء قليلا ، فأنتشى وأكون صلاح الدين ، أطعن الهواء بعصاى وأنخس حصانى بكعبى بحركة سريعة متوالية أحثه بها على العدو .

ولما اقتربت البيوت ازداد نخسى قوة وضربات عصاى توترًا . دعوت الله أن تخرج أو تنظر من فوق السطح لترانى منهمكا فى حربى الصغيرة غير مبال بها وبهم . لكنها لم تكن هناك حين مررت على دارها ولمحت - بنظرة خاطفة - الظلام الرسم فى الصالة عبر الباب نصف المفتوح .

قاومت النظر إلى الخلف . . قاومت .

ولما نزلت من فوق الحمار ، سمعت صرخة قوية .

التفت فوجدتها تخرج من باب الدار مندفعة والنار تمسك بكل جسدها . نار كبيرة متأججة . جمدت لحظة . لم أكن على يقين أن ما يحدث أمامى حقيقى .

كانت تصرخ ، وتدور حول نفسها ، تحرك ذراعيها بسرعة ، تضرب رأسها وصدرها وبطنها وفخديها . تصرخ وتدور وفحيح النار يعلو . تسقط على الأرض ، تحاول الوقوف . تقف وتشهق شهقات سريعة ، تسقط من جديد والشعر الأسود الكثيف اللامع يتجمع كتلا سوداء ويسقط .

لم أعرف كيف جريت إليها ، وكيف جاء الآخرون . كنت معهم أضرب الجسد النار بالتراب ، حتى جاءت بطانية - ربما هبطت من السماء - أحكمت أمها لف البطانية حول الجسد المشتعل ودفعتها على الأرض ورقدت - بكل جسدها - على جسد ابنتها . كان الدخان يتصاعد مع رائحة اللحم المحترق . رائحة غريبة قوية . . .

- النار وصلت للحم .

- لازم تروح المسشفى .

- حد يجيب مرهم .

تجمعت حلقة كبيرة من الرجال والنساء حولها ، حجبوها عنى وحملوها إلى الدار . وأرسلتنى جدتى لأحضر

الحاج سعيد بالجرار ليحملها إلى المستشفى . لكنى ، وقبل أن أبتعد كثيرا ، سمعت صرخة قوية تبعها صويت وعويل فجمدت مكانى وأحسست وخزة قوية فى قدمى اليسرى . وخزة تزداد قوة وتصعد إلى أعلى .

كانت صورتها أمامى وهى تتماسك وتحاول الوقوف ونظرة عينيها - بين ألسنة اللهب الصغيرة متواترة الحركة - معاتبة ، لكنه عتاب مغلف بالصفح .

ربما أرادت أن تقول -بشفتين مرتعدتين - لماذا تأخرت يا . . .

(٣)

كان شعرها كتلة لهب تتراجع وتترك الرأس خاويا لموجات متتابعة من النتوءات بنية اللون . رأسى سينفجر ، رأسى بين يديها ، أصابعها تجوس فى شعرى فأشعر بقشعريرة لذيذة مبهمة . هى أمامى ، تبتسم للغائب لما يعود ، تضحك ضحكتها الرنانة ، تبكى ، تكتم صرخة يأس بكف يدها وتمسح الدمع ، وتمشى مترنحة ممتقعة الوجه ، تمرر المشط العظم الأسود فى شعرها الذى له ألف لون ، وعتمة الدار تلف الجسد المغسول بالماء الساخن ، شعيرات البخار تتصاعد والوقت يمر ، أخى يزم شفتيه ويطلق صفارة تجمع الحمام وتصعد بها إلى السطح ، وأرى زرقة عينيها ، والخطوط المتداخلة داكنة الحمرة ، كحل يمتد إلى ما بعد حدود العين ، العين تدمع ، والدمع ساخن كالنار ، النار أكلتها ولم تبق على الشعر الناعم .

الليل مخيف معادٍ يحمل بين ظلمته رهبة وسكونًا يحطان على البيوت والشوارع والجبانة حيث ترقد الآن بعد فى غرفة منخفضة رطبة مظلمة ضيقة مخيفة بعيدة ، محكمة الغلق .

فى الغد لن تصعد إلى السطح لتنشر أو تطعم الدجاج أو تأتى إلى دارونا أو تجلس فوق عتبة دارها .

مواء القط بالخارج، آدمى النبرة لابد أنه أسود ضخم الرأس . بقايا اللطم والعويل والولولة تطن بأذنى ، تكبر وتتضخم . أغفو وأصحو على صرخة عميقة لصوت مذبوح : كانت صبية يا روحى .

صوتها من الظلمة يأتى معجونا بضحكتها الطويلة الممطوطة : لسه مجاش ؟! إوعى تقول لحد ، الجاز بيخلى الشعر يلمع ، إزيك ، تتجوزنى ياواد يا عسل انت ، لسه مجاش ؟

لماذا تأخرت ، ربما كنت فى مكان آخر . . بعيد .

مكان غريب : شوارع مرصوفة ، بنايات كبيرة مرصوصة فى توازٍ صارم ، أمامها صفوف أشجار - على خلاف أشجارنا - قصيرة محكمة التشذيب ، لها أشكال غريبة : دوائر ، مربعات ، مثلثات وحتى أشكال طيور .

مكان غريب وموحش ، سيظل خارجى ولن أغوص فيه .

ذهبنا إليه بالقطار ،قطار كبير مزدحم . كتل اللحم تملأ

الكراسى ، والفراغات بين الكراسى والممرات بين الكراسى ، وبين العربات وعلى رفوف الحقائب وعند الباب . خالى يشق لنا طريقًا فى أقل العربات ازدحاما . مكان للجلوس على الأرض : نعمة من الله القدير .

خالى يقف بجسده سدا حاميا من الأرجل الداهسة فى مكان اندفاعها اليائس .

القطار بطىء والنافذة العالية المكسورة مسدودة بكتلة لحم . كيف تمر يا وقت ؟!

أقف معهم أمام باب كبير أخضر أعلى من السور البنى . يفتح باب صغير فى جانب الباب الكبير . لمحته يمشى فى الصف الطويل مطأطأ الرأس غائر العينين ممصوص الوجه مجوف البدن . كنت معلقا بابتسامته الباهتة وحركة يده المتدلية المستسلمة وخالى يتحدث عن طريق طويل قطعناه ، وهو طويل لم يستطع قطعه والعسكرى الضخم بكرش مدور منسكب إلى أسفل ويغطى حزامه ، يعلن قلة حيلته . والعصى بأيدى العساكر تهش الواقفين وتدفعهم بعيدا عن الصف المتجه إلى سيارة بلون الكحل ، لها شبابيك من السلك تتجمع خلفها العيون والأفواه .

خالى- الذى لم ينطق أمام الكمسرى ودفع الغرامة مبهوتًا أحمر الوجه - كان يصيح ويدفع العساكر حتى يصل إليه . . لكنه لم يصل إليه . وجدتى - فى ظل السور تجلس - كفاها فوق رأسها ووجهها مدفون بين ركبتيها وإلى جوارها (سَبَت) ثقيل مغطى بجلباب أحمر لا يكبح رائحة الطعام .

سيغيب كثيرا ، لكنه سيعود ذات ليلة ممطرة ويبكى على صدر جدتى ثم يحمل حقيبة كبيرة ويسافر عند الفجر . سيسافر إلى الجزائر ثم إلى الكويت .

تمتصه رمال الصحراء ويتركنى وحيدا بين الكثيرين ، أقرأ لهم خطاباته القليلة قبل أن تنقطع نهائيا . ربما ضاعت فى البوستة أو ضاع هو فى البلاد البعيدة شديدة الحرارة .

يا ابن العصر المطير ، كيف تحتمل جفاف تلك البلاد ، وتكون بدينا إلى هذا الحد وضحكتك بلهاء فى آخر صورة وصلتنا منك ؟ صورتك القديمة هى آخر ما بقى لى ، بها روحك القديمة التى تتلبسنى أحيانا.

كلهم استبدلوك فى جسدى ، كلهم ينادون علىّ باسمك .

أحاول أن أطردك من داخلى فلا أستطيع .

هل كان عذابك لا يُحتمل ، لم يتحمله جسدك النحيف ؟ ربما .

(٤)

وحدى أتسلق السور ظهرًا ، أبحث ببصرى عن الثعابين والجوهرة والتاج وغارس هذه العصافير والكتاكيت فى أشواك الشجر .

العيال عند المزرعة خائفون ، ينادون علىَّ ويهددون بإبلاغ جدى . سأنسلُّ من بينهم فى الغد وأحضر إلى هنا ، وحدى ، ولن أكتفى بتسلق السور ، بل سأقفز إلى الحديقة ، وأدفع باب الاستراحة البنى المكسور .

لن أخاف الثعابين التى بالبرج أو بالاستراحة أو تلك التى تحت سريرى والتى تأتى بالليل وترفع المرتبة وتطل برءوسها العجيبة من بين مُلل السرير وتضىء عينها الحمراء ظلام الحجرة ، ثم تبدأ جريها خلفى والذى ينتهى دائما بأن تنهشنى .

أكوم الحصى جانبى فوق السور ، آخذ حصاة وأقذفها فى الباب بعنف ، أتبعها بأخرى علَّ انقباضا بصدرى يزول .

ولجت من الباب ، جذبنى الهواء البارد المخزون منذ

زمن . خطوت خطوتى الأولى إلى الداخل فغاص التراب / الإسفنج بقدمى وقلبى . جمدت ، وتحركت عيناى - عبر سحابات من خيوط العنكبوت المخملية الهشة - من الجدران إلى السقف إلى السلم الخشبى العريض . انتشيت لما رأيت بقايا كراسٍ كالتى نراها فى التمثيليات ، على الجدار المقابل صورة لطفلة غادرت الإطار وصارت سيدة سقتنى عصيرًا بماء الورد وعادت - سريعًا - إلى حيث كانت . تركتنى لفراغ ضخم يمتصُّنى ، يقهرنى ويبث فى صدرى بذرة حقد سوف تنمو .

تأملت السقف الذى احتفظ بانحناءات مرنة عند الجدران ، ورسوم هندسية حادة بارزة فى الوسط ، تتدلى منها سلسلة طويلة سوداء .. ربما كانت تحمل مصاحبًا أو نجفة.

اتجهت إلى السلم وضعت قدمى على الدرجة الأولى فسمعت صريرا ناغما ، فأدركت أن الخشب لم يعد قادرا على حمل بشر . لكنى جازفت وصعدت . مع كل درجة رغبة وألم محمومان غامضان . فى الطابق العلوى ، وفى الغرفة الأولى : تراب ، خيوط عنكبوت ، أوراق ، كتب

ومجلات ، سرج حصان أجزاؤه المعدنية خضراء طحلبية ، زجاجات كثيرة متنوعة الأحجام والأشكال على بعضها كتابات أجنبية غريبة ، علب صفيح صغيرة وكبيرة فارغة ، مرآة كبيرة بها شروخ ، علب سجائر فارغة غريبة الشكل والألوان . على الحائط المقابل للباب ستارة كبيرة قرمزية باهتة ، حوافها مشرشبه وأجزاؤها السفلية متآكلة . فى الجانب الأيمن ، دولاب صغير بضلفتين صغيرتين وأربعة أدراج بعرضه ، فوقه كومة أخرى من الكتب ، فوقها كومة تراب . مددت يدى ونفضت عنها التراب . تربعت فوق الأرض الخشبية المتربة ، وضعت الكومة بين يدى كى أتصفحها ، لكننى لمحت - فى زاوية الحجرة ، تحت طرف الستارة - بريقا أزرق لكرة زجاجية ، بحجم بيضة البطة . دققت النظر فيها فرأيت شيئا ما يتحرك . فركت عينى وعاودت النظر فرأيت شيخا كبير الرأس واللحية ، يتوسط جمعًا غفيرًا ويتحدث إليه بانفعال وهو يحرك قبضته . حاولت أن أتذكر أين رأيته ، وفرحت لما تذكرت أن أخى يلصق صورته على شباك سريره بالقاهرة .

عاودت النظر ، لكن الصورة تغيَّرت ، كل مرة صورة

جديدة مختلفة . رأيت السيارات ، وسيدات المدن والزهور والحدائق والشوارع المرصوفة والأشجار المشذبة والبحر الكبير بموجه العاتى ، والولد يجرى خلف البنت ، يخاصرها ، البنت تشرب سيجارة طويلة والحمام الأبيض منقوش الصدر مرفوع الذيل كمروحة يأكل من كف الصبى فى دعة . زحام وفوضى أجساد ، بيوت شاهقة الارتفاع : طابق فوق طابق فوق . .

وبيت رمادى كبير يشبه سراية الباشا ، حوله حديقة بها سور ببوابة من حديد تغلق بجنزير له قفل ، فتاة تلوح بيدها من الطابق الثالث للصبى الواقف يقضم أظافره . تنزل على السلم مسرعة ، تقطف وردة حمراء من الحديقة ، تقربها من أنفها وتسحب الهواء وتغمض عينيها وتجرى فيرتفع الثوب وتلقى بها بين حديد البوابة ، يلتقطها الصبى ويجرى ويكون له جناحان فى بياض الياسمين .

رمشتُ فتغيرت الصورة ، رأيته يمشى فى صحراء بلا نهاية ، عشقه جبل بين يديه ، يمشى به وتتورم قدماه ويمشى ، ويصرخ فى البرية رعبا . منبوذ هو ومطارد . خائف من الشمس يبحث عن الظلمة الدافئة يركن إليها . . ويبكى .

النهار حجب ومباعدة

الليل وصل واتصال وبرزخ للرؤيا .

حين تقترب يجرى إليها . يمسكها بيديه وكأنما يتحقق من وجودها . يسحبها بلهفة إلى الصفصافة الكبيرة الطيبة . ذراعه تحاصر خصرها ، تستسلم له ، يقربها إليه أكثر حتى تشتبك أنفاسهما . تغمض عينيها ، وتشتعل عينى ، ولا أستطيع النظر إلى الكرة الزجاجية التى تحول لونها إلى فيروزى حاد ، كذلك الضوء الذى يكشف الطريق للثعبان الضخم فى الظلام ؟

الظلام ساد الغرفة .

تقول جدتى إننى لم أذهب إلى هناك ، ولم أقتل الثعبان وأحضر الجوهرة ، وأقسمت أننى لم أغادر الفراش منذ يوم الخميس ، وأن الشيخ إبراهيم ربط رأسى بمنديل وزر رأسى وكسر بيضتين فوقه ، وقالت إننى كنت أهذى من ضربة الشمس .

لا أطيق هذه البطاطين على جسدى ، ولا أحتمل حرارة جسدى ، ولا ذلك العرق اللزج الساخن الذى يلتصق بكل خلاياى . أحس أنفاسهم لكن أصواتهم تأتى من بئر عميق

ممزقة الحواف . قالت جدتى : نذهب به إلى المقام ، وقال أخى إلى الطبيب . رأسى ستنفجر ، أحاول رفعه عن الوسادة ، لكنها ثقيلةٌ . . ثقيلةٌ جدًا .

(٥)

فى البدء وُضع القش إلى جوار الترعة فكانت « مصلية » ، بعد ذلك - وبفعل الوقت - أحيطت بسور قصير من البغدادلى ، ثم سور آخر من الطوب الأخضر ظل يرتفع ، ثم سقف بغاب رومى وغاب بلدى وحطب وقش فكان مسجد له جدران مدهوكة بالطين مدهونة بالجير وله باب وشباك وقبلة ومصطبة عالية يقف عليها الخطيب الغريب يوم الجمعة .

يعظ الجمع الغفير نصف المنتبه - كل جمعة - وينصحهم بالتقشف وينهاهم عن الأكل فى أوان من ذهب وفضة ، ويحذرهم من خزن قوت المسلمين ويوصيهم ببعضهم البعض خيرا ثم يدعو لهم بالخير والبركة ، بركة « أبو سليمان » ثم يخرج بعد الصلاة وهم يسألونه كل مرة بذات الشغف والترقب عن زكاة الزروع وتقسيم الميراث .

يركب حمارنا بعد أن نضع له فوق البردعة شالا نظيفا ، أسحب الحمار إلى المدينة ثم أتركه وأعود راكبا الحمار وحدى .

نظام لا يختل إلا قليلا ، فأحيانا كان يطلب منى أن أسرق أقصد أن أحضر له عودين قصب أو قرنين فول أخضر .

أختنق من كلامه الكثير الذى يبرر به طلباته ، لكننى أفكر فى العودة على الحمار الذى يطير وأنا فوقه .

مرة ، سقط من فوق الحمار وتدحرج إلى أن سقط فى المصرف . تركته ورجعت ببهجة تملأ صدرى ، أحسست أن الله انتقم منه لأنه كان يومها غاضبا أحمر الوجه يزعق : المنتحر كافر والكافر فى النار ، ومن أحرق نفسه بنار الدنيا ؛ أحرقه الله بنار الآخرة .

كان كلامه كاويًا ، رسم نارًا حقيقة لها دخان أسود كثيف متصاعد ، وأزيز غاضب وهى تجلس مغمضة العينين ، متربعة مستندة إلى الحائط . المشط الأسود يجرى بشعرها المنساب على كتفها اليسرى . ساقها البيضاء الضخمة بها زغب أصفر خفيف جدا . جدا . حركتها بطيئة آمنة كسول ، فوق شفتيها ابتسامة خفيفة وادعة ، وجهها منتفخ قليلا ، لكن رائق كاللبن الحليب . يرتفع صدرها ويهبط مع الشهيق والزفير فى توالٍ لينٍ منتظم .

النار الخبيثة تقترب دون صوت . خروج الهواء من فتحتى أنفها هو كل الصوت . تتقدم النار أكثر وأكثر وأكث . . . ثم يظهر فحيحها فجأة ، ويتغير لونها إلى أزرق به اخضرار ، ودخانها أكثر كثافة .

كان اليوم الأخير له عندنا ، جاء من بعده شاب جلبابه نظيف شديد البياض قصير قليلا ورائحة المسك لا تغادره . لا يرتدى عمامة ، بل يسبل شالا على رأسه ، ينزل إلى كتفيه فيؤطر لحيته شديدة السواد المهملة والأنيقة فى آن .

كان يصر أن أركب أمامه أو خلفه ، أحيانا كنا نمشى معًا ساحبين الحمار . حديثه حلو ، لكنه لا يعجبهم لأنه قال مرة - ويالها من مرة - أن سيدى « أبو سليمان » لا ينفع ولا يضر . توقف قليلا وبلع ريقه لما رأى الصمت بأجنحة وأنياب فوق الجمع الغاضب . تنحنح بعدها وقال لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله .

سيقول بعد ذلك - فى وقت آخر سيجىء - إنه لا ينفع فقط . وأن الله أذن ببناء مسجد آخر من الطوب الأحمر ، له قبة ومأذنة ، ومفروش بسجاجيد خضراء نفاذة الرائحة .

وقتها ، سيكون الصبى قد كبر .

(٦)

تأتى الريح لتنقل الهمس الفحيح من مصطبة إلى أخرى ، من فم إلى أذن . همس ينتهك صمت الحداد ، وينضح برائحة خطر ما ، غائر ومبهم ، عن الجسد الفياض وحشى الجمال الذى صار طعمة للنار قبل ليلة الحنة بليلة واحدة .

الكل يستعد للفرح القريب . بيتها يحتشد بنساء القرية وأطفالها منذ أسبوع . فى الصالة الداخلية الصغيرة ، سيدة عجوز تضع الطشت العميق المحتشد بالعجين الغنى المختمر الطافح خمرى اللون بين ساقيها المفرودتين ، وقد انحسر ثوبها إلى ما فوق ركبتيها بقليل . يدها تدور فى العجين وتخرج بكرات صغيرة محكمة الاستدارة ، تضعها فى صينية كبيرة إلى يمينها ، تتلقفها أياد مدربة تعمل فى دأب وسرعة محسوبة لفرد كرات العجين قليلا ، تتسلمها بعد ذلك أياد أخرى أمسكت بالمناقيش الصفراء مشرشرة الحواف .

جدتى تجلس أمام الفرن تسوى الكعك ، صفية تنظر إلى النار وأنا أنظر إلى عينيها . ساعتها لم أكن أعرف أن عينا أخرى صغيرة وجميلة ترصدنى بشغف سيشقينى ويشقى بى . كانت فى الصالة الكبيرة ، تجلس فى الحلقة المنصوبة حول السيدة التى تدق على الطبلة بعد أن شدت جلدها على نار صغيرة أمام باب الدار - وتقود النساء والبنات اللاتى يصفقن ويزغردن .

كانت وسط الدائرة وقد تحزمت بشال أسود له شراشيب حكم اتساع ثوبها الفضفاض الأبيض بورد أزرق صغير ، له فتحة مربعة عند الصدر تحيطها طبقة من الدانتلا الزرقاء الداكنة . رقصت حتى تعبت وطرزت قطرات العرق جبهتها وصار وجهها الريَّان مشتعلا بحمرة وردية . فكت عقدة الشال من حول خصرها ومسحت العرق براحة يدها وفكت الإيشارب الأحمر وأعادت عصبه حول رأسها بعد أن جلست وقامت أخرى لترقص . . ولكننى لم أرها .

فى عينيك يا صفية ما هو أكبر من الحزن .

كانت ساهمة مستسلمة ، تمسك بين يديها ثوب عرسها الأبيض الموشى بالترتر وخرج النجف ، بإهمال واضح .

تبتسم ابتسامة يابسة وهى تتابع التى ترقص . وتلك ا
تغنى والجمع يرد خلفها

ياسى سيد يابيه
ياسكر على لمون
يازينة كل العيون

السيد جاء بالأمس فى إجازة تدوم أسبوعين . يتزوج ثم يعود إلى المكبس ويتجول معه فى أرض الله وعلى باب الله . كان أبوه قد دهن البيت بالجير الأبيض ، ودهن الشبابيك بالزيت الأخضر ، وخلع باب الدار وباب المندرة واستبدل بهما بابين عمولة من الخشب الأبيض الثقيل .

دار سيد على أخواله وأعمامه وأبناء أخواله وأبناء أعمامه ، ثم فتح المندرة ليلا لأصفيائه وخلانه يتسامرون طوال الليل .

ولما رآها ملفوفة فى البطانية ، لطم وبكى كالأطفال : فرحنا بعد بكرة يا صفية .

حاول رفع الغطاء عن وجهها ، لكن الواقفين منعوه . سنده خالى وأخذه إلى دارنا وأجلسه فى المندرة . كان جسده يهتز ونهنهاته اختلطت بصوته المختنق المذهول بليه

بس يا رب ، أحضرت له القلة ، لكنه لم يشرب . أصر على الخروج لكن خالى منعه ، وحدثه عن أمر الله وقضائه وقدره ومشيئته ، فجلس ثانية وطرح رأسه إلى الخلف مستندا إلى الجدار . عيناه كانتا حمراوين ، ووجهه أصفر وشفتاه ترتعدان .

سيذهب سيد إلى المكبس مرة أخرى ويعود بعد أسبوع دون كف يده اليمنى ، ثم يحاول بعد عودته بيومين أن يحرق قبرها . لكن أهل البلد يجتمعون عليه بين واعظ وزاجر . سيبكى مرة أخرى ، ولن يذهب إلى المكبس ولن يدخل دارها أو دارنا .

سيظل إلى أن يشيخ جالسا على شلتة صغيرة أمام باب داره ليحل أسلاكا تستخدم فى كبس قش الأرز والبن . يضع أطراف ضفيرة السلك الكبيرة بين أصابع يده اليسرى ويدفعها إلى الأمام بأصابع قدميه فتنحل الضفيرة الكبيرة إلى أسلاك مفردة رفيعة تتلوى على الأرض .

سيفعل ذلك بسرعة رهيبة ، ولن يرفع عينه عن الأرض ولن يلقى سلام الله أبدا .

وسيظل ما يقال همسًا سرا خطيرًا محجوبًا عنى ،

أطارده ولا أحصل عليه . لن أسمع سوى جملة واحدة مبتورة : وكان شعرها منكوش ومليان تبن وصدرها . .

لدى شعور غامض مبهم بأن ما يقال قبيحا ، نار أخرى تأكل من جديد ، فأصبحت أهرب من معرفته وازداد جلوسى تحت الصفصافة وحدى .

الفصل الرابع



(١)

ثم إنه حدث أن خرجت الأميرة من بوابة القلعة الخلفية ، متخفية فى ملابس جندى من جند المراسلات وأنها خرجت إلى الجبل فداهمتها همهمات الريح الخافتة فأيقظت بداخلها شجنا قديما . كما رأت القمر حرا فى السماء يجرى ويلعب ويتقافز إلى جوارها فرحا لأنه خرج من إطاره ، شباك حجرتها . ولما كان قمر الليلة هو أجمل قمر شهدته الدنيا ، قررت الغزالة أن تسعى على ضوئه الخافت لتكمل ما حرمها منه الذئب تحت ضوء شمس النهار .

ولما كان قمر الليلة أجمل قمر شهدته الدنيا : كبير وقريب ولامع ؛ قرر الذئب أن يسعى على ضوئه الكاشف علّه يكمل مطاردة لم تتم تحت ضوء شمس النهار الفاضحة .

ولما كان قمر الليلة أجمل قمر شهدته الدنيا : كبير وقريب ولامع وحوله هالة فضية ضافية ؛ تقلب الشاطر حسن على قش سطح الدار ولم ينم ، بل تطلع إليه وأحس

أنه قريب ، فوق الجبل مباشرة ، لو مد يده - من فوق الجبل - لأمسك به ، أو على الأقل ، أخذ قبسا من هالته الأقل صفاء والأكثر غموضا .

ولما كان قمر الليلة أجمل قمر شهدته الدنيا : كبير وقوى ولامع وحوله هالة فضية غامرة تسحب الروح ؛ قررت أن أصعد إلى السطح وأترك الحكاية وجدتى التى نامت . ربما غاصت فى حدوتة أخرى عن فتاة لم يتراجع فمها ليبرز الأنف والذقن ويبهت الشعر الذى كان بنى اللون .

رقدت على ظهرى فوق القش المبتل بالندى ، شبكت أصابع كفى و وضعتها وسادة تحت رأسى . كان ضوء القمر يغمر الدنيا فضيا لامعا معجونا بخضرة خفيفة دافئة ، وهواء ليل الصيف ثقيل ومنعش ، هباته المتلاحقة تأتى من مكان آخر . . بعيد بعيد ، تضرب الجسد الممدد ضربات هينة واهنة وتبث فيه قشعريرة كألسنة البرق تومض وتمضى فيرتجف الجسد ويمتد ثم يرتخى ويسكن ، ويرتفع خفيفا أثيريًا تؤرجحه الريح وتهدهده هبات الهواء الهامسة ويصعد مسحوبا بسحر النداء الشجى المتواصل القادم من عالم آخر يغمره الضوء ويحجبه الضباب .

عالم كبير وقائم على برزخ بين النوم واليقظة ، أو يقطن عمق الحلم ، أكاد أنفذ إليه لكنه يضيع وأتألم لفقده ، أمسك به فى لحظات خاطفة براقة مراوغة ، أحاول تجميعها وتركيبها من جديد وتحديد مصدرها . هل تأتى من عمق الماضى المطمور داخلى ؟! هل تأتى من الزمن الآتى محملة بالنبوءة ؟! زمن ضاع أم آخر سيأتى ! يكبر ويمتد ويحتوينى ويكون بلا ألم بلا فقد ، بلا مسافة .

يكون العالم أصابعنا التى تتشابك وتلتحم وترجف .

تكونين أنت الأصل من عوالم أخرى مكرورة .

(٢)

هذه القرية غزل عنكبوت ، بها ثلاث عائلات أصيلة . تشابكت واندمجت وصارت عائلة واحدة وكبيرة . ورد عليها بعد ذلك أغراب استقروا واندمجوا .

قَدِم جدى الأكبر للعمل عند الباشا منذ زمن بعيد . استقر وبنى بيتًا واسعًا فى مردوم البركة التى التحقت الآن بالقرية . أنجب جدى الأكبر سبعة عشر ولدا وست بنات من خمس زيجات . يقولون إنه لم يكن يعرف أسماءهم ، وكان ينادى عليهم جميعا صائحًا يا أولاد الكلاب عدا محمد ابنه البكرى سمىّ أبيه وساعده الأيمن .

تقول جدتى أنهم كانوا يخرجون فى ترحيلات بعيدة ، ويعودون . بعضهم كان يتزوج ويقيم حيثما استقر به المقام ولا يعود إلا زيارات خاطفة . لذا صار لنا أقارب فى المطرية والمنزلة وكفر الشيخ ودسوق وأولاد صقر و « أبو كبير » وتلا وطوخ ، ولنا أقارب فى الإسكندرية كذلك ، أبناء جدتى زينب التى تزوجت صعيديًا ورحلت معه إلى الإسكندرية .

مبدورون فى الأرض ، بينهم مسافات شاسعة ، فقط يتقابلون فى الأفراح والمآتم ، ويأتون إلينا بملامح غريبة ولكنات أغرب ومودة معلقة . يبيتون عندنا أياما يبثون خلالها روحًا جديدة فى الدار . أستغرب ملامحهم وطريقتهم فى الأكل والكلام وأندمج بسرعة مع أبنائهم المنكمشين . نصير أصدقاء ثم أنساهم سريعا ولا أحزن لفراقهم . إلا هى . . أذكرها منذ جاءت أول مرة مع أبيها (ابن عم أبى لزم) لزيارة المقام.

أقاموا عندنا ثالث ورابع أيام العيد ثم حضروا الليلة الكبيرة وسافروا فى اليوم التالى مباشرة . كانت تلتصق دوما بأبيها ، ولا تتكلم مطلقا ولا تستجيب حتى لمداعبات جدتى . وكانت ترتدى فستانا أحمر قصيرًا به زهور صفراء صغيرة ، له ياقة كبيرة مستديرة من القطيفة السوداء . وأزرار كبيرة لامعة ، وترتدى صندلا أحمر . شعرها شاحب الصفرة مفروق عند المنتصف ومجدول ضفيرتين كبيرتين طويلتين . عيناها عسليتان واسعتان صافيتان متعلقتان بصورة مرسومة لجدى ، بهما أمومة وتحفز نزق وكبرياء يدعمه صمتها الدائم ورفضها أمر أبيها أول الأمر : سلمى على ابن عمك . لكنها رضخت فى النهاية تحت إلحاحه وتهديده .

مدت يدها نحوى وأدارت وجهها نحو أبيها . أمسكت الكف للحظة .

كم تمددت هذه اللحظة الخاطفة وأوجعت قلبى ليالٍ متوالية . كم ظل كفها الصغير الممتلئ النزق الخجول اللامبالى مطبوعًا بذاكرة كفى ، مرتبطًا بالشتاء وصوت المطر .

شتاءات كثيرة ستأتى دون أن أراها .

(٣)

بعيد أنا رغم جلوسى بينهم حول النار . أرقب ألسنتها المتراقصة الهادئة التى ترسم القطار والبحر الكبير والمدينة الأكبر والسعى والمطاردة . أهدأ لما تخمد وتختبئ تحت الرماد الداكن وأكون على وشك البكاء . يطول علىّ الليل ، أغتاظ من طوله ولا أحتمل مراوغة النوم . ماحدث يتكرر أمامى فأنقبض وأبتهج عندما يتكرر مرة أخرى ، ألمح التفاتة ماكرة وربع ابتسامة تحاول كظمها . عينان عميقتان هادئتان كعين حمامة ، وأنا أحب الحمام . أطعمه وأسقيه كل يوم وأنظف حجرته وأغير له القش وأضع له السكر فى الماء دون علم جدتى ، لكنه لا يأكل من كفى كما يفعل مع أخى محمود . حتى الكلب الأحمر الذى أحضرته صغيرًا يبتهج حين يرى محمود ، يرفع رأسه فى الهواء وينبح بقوة فأعرف أنه قادم . يجرى إليه ويهز ذيله وتلتمع عيناه ويصيئ ويمسح رأسه بساقى أخى ويتقافز فى الهواء حوله ويشب على صدره ويتبعه أينما ذهب ويجرى إليه عندما يطلق صفارته القوية ،

ويجلس إلى جواره عندما يصطاد ، ولا يمل الجلوس لساعات . أنا أيضا أحب أن أجلس إلى جواره حين يصطاد . كان يقول : الصيد يعلم الصبر .

ساعات تمر عليّ ممسكًا بالبوصة بيدى اللتين اعتمدتا على ساقى . أنظر إلى الخيط المدلى من طرفها إلى صفحة الماء . قلبى معلق بالغماز الطافى وبعينيها على الشاطئ الآخر . تختلس نظرات سريعة مراوغة ، لا أستطيع اصطيادها صريحة فأرتاح وأصدق حدسى .

كانت تغسل المواعين على الشاطئ الآخر بانهماك غريب ، بيدها ضفيرة من سلك وقش معجون بتراب الفرن ، تدورها فى الحلة بسرعة ومهارة ، والسمكة الماكرة أكلت الطعم من حول السنارة . وكلام أخى يطن بأذنى ما زال . أقتل دودة جديدة بين يدى وأحكم إدخالها فى السنارة ، أحاول ذلك دون أن يتمزق لحمها الطرى ، لن يمر وقت طويل حتى يغطس الغماز بقوة تحت سطح الماء ،أجذب البوصة بقوة وقد ضربتنى المفاجأة !

كانت السمكة تتقلب فى الهواء نحاسا أحمر وقطرات الماء من حولها لها ألف لون ، والشمس برتقالة كبيرة بعيدة

هادئة . السمكة تتقافز على الأرض بين الحشائش قبل أن أقبض عليها بكفى .

جميله وصغيرة ، زعانفها الصغيرة مشرعة ، تفتح فمها بسرعة . سن السنارة خرج من طرف فمها أسفل العين . أخرجت السنارة من فمها بصعوبة . وضعتها فى الكيس وحملت البوصة قاصدا الدار . لكنها نادتنى وطلبت منى أن أعينها فى رفع الطشت الكبير الممتلئ بالحلل والأكواب على رأسها ، ولما عبرت فوق « المعدية » بادرتنى بالسؤال . . اصطدت كام سمكة .

- واحدة صغيرة .

- الصغير بكره يكبر .

قالتها وابتسمت وأطلت النظر إلى عينيها .

نظرة واحدة طويلة ، احتوتنى ، وجعلتها حاضرة بداخلى . للمرة الأولى ألمح هذا الوهج بعينيها . مسكونتان بروح لا أعرف كنهها ، لكنها صاخبة وفياضة ، تسكب مادتها غير المنظورة على كل الجسد ، وتفيض لتغمر الحقول والأشجار والشوارع وقلبى .

غابت الشمس واشتد الهواء ، وصارت القرية ضوءا

أحمر بعيدا مخنوقا يهتز ، ورائحة السمكة الوحيدة قوية وبها رائحة البحر . لم أعرف - ساعتها - كيف اشتبك القلب بالقلب واصطكت العظام بالعظام . كانت ملابسها مبللة بالماء ورائحة جسدها لاذعة وقادمة من أماكن بعيدة ، رطبة ، مظلمة . أحس طراوتها الطاغية تضغط جسدى .

بداخلى قط برى ، أيقظت رائحة السمك جوعه ، لهفته للطعام تجعله يدس أنفه فى كل ما يرى ، يتقافز فى الخلاء المفتوح بحثًا عن طعامه الموعود . يموء بشراسة مكشرًا عن أنياب بيضاء مسنونة وجاهزة لتمزيق أى شىء إلى نتف صغيرة ، لكنه وحين يقترب أكثر وأكثر يكون قد دخل مصيدة ناعمة ، محكمة الغلق .

(٤)

قروى ساذج ومدينة كبيرة .

فتاة المدينة بلون القمح ولوجهها لمعته ، لكنها لا تعرف القمح ، ولم تره من قبل . هى تحفظ الأغانى وتعرف كيف تضع أحمر شفاه يجعلها جميلة ، وتترك شعرها منسابًا فيجعلها جميلة . ترتدى بلوفر أبيض برقبة طويلة تخفى رقبتهاويؤطر وجهها ويجعلها جميلة . ترتدى بنطلون جينز ضيق يجعلها جميلة .

فتاة المدينة لم تر القمح فى الحقل وتطلب منى أصفه لها ، وهى تضغط أزرار لوحة مفاتيح الكمبيوتر بأصابعها الرفيعة الطويلة السمراء بارزة المفاصل .

أصابع ترمح فوق الأزرار وتقبض على المقشة لتكنس المكتب وتنقر خشب المكتب فتخرج أنغاما جميلة .

هل ستتجه هذه الأصابع نحوى ، نحو كف يدى ؟

قلبى يرتجف ، وفتاة المدينة خفيفة الظل ، تحفظ النكات وتقلد أمها ومدير الشركة وبواب العمارة ،

وتقلدنى . تمسك القلم بين أصابعها ، تضعه فى فمها وتسحب الهواء ، ترفع رأسها إلى أعلى ، تزم شفتيها وتخرج الهواء قويا ، تضيق عينيها وتقطب جبينها وهى تحرك يدها فى الهواء فى دوائر وتخرج الكلمات غليظة مضغوطة الحروف .

- صباح .. أنا مش فاضى .

- أنت أراجوز .

- وأنت فلاح .

- ....

- بس طيب ... وأحلى حاجة فيك إنك شكل خالى محمد . دا مدرس فى السعودية من عشرين سنة وأنا بحبه جدا ، هوه وعمرو دياب و...

فتاة المدينة تحب الزهور وتكره الكتب وتحسن الكلام . تنطق بالحكمة - أحيانًا - حكمة الشوارع الواسعة الباردة والبيوت العالية والشقق الضيقة .

تجرى لتلحق بالأتوبيس ، تشق طريقها بكتفها لى ولها ، تأكل فى الشارع ، وتجيد الفصال ، وتسب وتلعن ، وتكذب على أمها لتبرر خروجها وتأخرها معى ، تضحك

بصوت عال ضحكة جميلة . تتحدث أثناء المضغ وتشير إلىّ بيدها :

- كلمنى كلام حب . . القمر النجوم . . والحاجات دى يعنى .

- معرفش .

- والنبى أنت بايخ وأنا حاتجوز ابن عمى . . زعلت ، بتغير . . دالسه فى الحضانه .

فتاة المدينة عصفور دائم الطيران . لا أتخيل لها بيتا وأبًا وأما وأخا وأختين . كائن صغير ووحيد يرتجف بسبب هواء الليل وينكمش على نفسه ويلوذ بصدرى . صدرى يرتجف ويتسع ويغمره ثلج كثير يغمر الوقت والنيل والأشجار العتيقة والسيارات . لا يبقى غير عرق جبهتى وجسدها الصغير إلى جانبى خفيف كريشة ودافئ جدا . دقات قلبها مسموعة ، ولشفتيها طعم الفراولة .

فتاة المدينة دبلوم تجارة ، عمرها ثمانية عشر عامًا فى مارس القادم . أحبت مرتين ووالدها يعمل موظفا فى مصلحة صك العملة . أختها الكبرى تزوجت منذ عام والصغرى تشاركها الحجرة والسرير والدولاب والمرآة وملابس الخروج

وشامبوالشعر وزجاجة لها رائحة الياسمين ، وأنا أحب رائحة الياسمين الممتزجة بعرقها . دموعها كبيرة مستديرة تتساقط على أطراف أصابعها . كلماتها تجرح قلبى وتنفذ إليه . لكن جزءا كبيرا فئ يرفض أن يصدقها ويحدس أن هذه الدموع مدربة ، سقطت من قبل بحرارة أكثر ، وأن كلامها المنساب الطلق مشذب بفعل التجربة .

كنت فى زمان مضى أحس أن شيئا كهذا سيحدث ، ليس مجرد توقعه أورغبة فى حدوثه . لم أتخيله ، بل رأيته . سيئ أن ترى الأشياء تحدث أمامك مرة وثانية وربما ثالثة . لأنك فى المرة الثانية - الحقيقة - لا تستطيع البكاء أو الضحك أو حتى الاستسلام لشلالات الدهشة . فقط تكون ملامحك جامدة وبقلبك خواء وفوضى .

هى أيضا عادة سيئة . استطاعت - بنظام مدروس - أن تقضى على خجلى وترددى وأن تكون شمس الشتاء ، تغيب وتحضر وتنتقل وأتوق لرؤيتها وأفرح لما أراها وحين تفارقنى أحزن ، وأنسى فتاة تعرف القمح ولم تر الياسمين ولها لون الياسمين ورائحة الأرض . كفها يمسح ضرع الجاموسة وأصابعها القصيرة الممتلئة اللدنة تحيط بالحلمات الطويلة

وتضغطها ضغطا هينا فتندفع دفقات سريعة من اللبن تضرب باطن الطاجن الواسع بين ساقيها .

ترتدى جلابية كستور بيضاء زهورها حمراء كالعادة ، واسعة سابغة بفتحة مربعة حول الرقبة ، ورأسها معصوب بإيشارب بيج بزهور بنية.

هى لا تعرف أن الياسمين محبوس بزجاجات تضمِّخ الجسد وتوقظ الروح ، وروحى أنا معلقة بين فضاءين . كما أنها دائمة الخوف والتطير ، ماهرة فى اصطناع الحزن وافتعال الغضب . عود حطب لا يلين ولا يكسر لكنها كامنة داخلى وأنا مشطور وهى تبكى تحت صفصافتنا . لكن دموعًا أخرى تتساقط أمامى الآن .

أمسحها بيدى وأحاول أو أتمنى أن أصدقها .

فى وقت سيأتى ، ستعترف لى أنها كذبت علىّ ، وأن عمرها - وقت عرفتها - كان خمسة وعشرين عاما لا ثمانية عشرة وأنها من الإسكندرية أصلا وتقيم مع خالتها وزوج خالتها ، وهى الآن تقيم مع صديقة لها ، وفى وقت آخر ستخبرنى أنها تزوجت مرتين ، عرفيا . وأنها رأت الموت بعينيها لما تخلى عنها الناس ، كل الناس وكنت أنا بعيدا وكان هذا نوع من التخلى .

- كنت أريد أن أحكى لك فقط . كى أستريح .

لكنها لم تسترح إلا بعد أن رأت الدم يتدفق من معصمها ويتساقط على بلاط الحجرة ويصنع بركة صغيرة.

- فكرت أحرق نفسى زى البنت اللى حكيت لى عنها ، لكن الموس كان أسهل وأسرع وأرخص .

ولكنها لم تسترح لأنها أفاقت فى المستشفى ، وعملت بها .

وفى وقت آخر ستقول إنها كذبت علىّ لكى تأخذ العشرين جنيه لأنها كانت تحتاجها لتدفع مصاريف أختها ، لأن الناظر الجلف طردها من الطابور وأن أختها الآن دخلت كلية الحقوق والكتب غالية جدًّا ، وليس معى إلا ثلاثون جنيها ورغبة فى أن أراها ثانية .

ربما يأتى وقت آخر أخبرها فيها أننى أصدقها تماما وأن ما أخذت من مال ليس دينا عليها يجعلها تتهرب منى وتخشى مواجهتى .

يا بنت الناس ، أصدقك لأنى أعرف الدنيا ، وأسامحك لأننى أعرف الدنيا . لكن كل ما أتمنى ألا أراك ثانية ممتقعة الوجه زائغة العينين ، تمسكين رأسك بسبب الصداع وترغبين فى التقيؤ وتكونين منهكة لا تستطيعين الوقوف .

الفصل الخامس



(١)

فجأة صرت كبيرًا ، من حقى الآن أن أجلس على كوبرى الترعة ، أرصد القادمين والمغادرين ، خاصة ذوى الحقائب المعلقة على أكتافهم ، يذهبون إلى الجيش أو للعمل فى ترحيلات أخرى من نوع جديد . غيابهم مؤقت ، وحضورهم هش .

يكونون - وهم بيننا - غيرنا . يرتدون جلابيب بيضاء نظيفة ، ويتنقلون بكسل من دار إلى دار ، يشربون الشاى ويحكون عن عوالم وأشياء غريبة ، يشرئب خيالى ليتلصص على ما يحكون وقد استخدموا فى حكيهم كل صيغ المبالغة وظهرت كلمات جديدة على ألسنتهم .

نفرح بهم ، لكنهم أصبحوا خارج النسيج ، لا يشتركون فى عمل ولا يُطلب منهم رأى . نظرتهم زائغة وحركتهم - دائما - زائدة عن الحاجة ، لكنهم لا يمكثون طويلا . ربما بسبب الملل أو لإحساسهم أنهم فقدوا أماكنهم القديمة أو أنهم أدمنوا الأماكن البعيدة ؟

هل سيأتى يوم أكون مثلهم ، يلفظنى النسيج الصلب وأخرج حاملا حقيبتى على كتفى ، ألقى السلام على الجالسين / المرصوصين على كوبرى الترعة ، هل سيرتبك خطوى وأحس أن روحى معلقة فى الهواء أو مشدودة إلى وتد فى أول البلد ؟ !

يغافلنى الزمن ويجيبنى على أسئلتى فجأة ، عندما أجد نفسى فى شرم الشيخ حيث تلفظنى الحجرات المكيفة والردهات الواسعة المليئة بالوجوه الشاحبة والمرايا ، المرايا تشتت روحى ، المرايا تبعثرنى وتلقى بى إلى حيث لا ظل . حقيبتى وعينى معلقة بعقارب الساعة . قطرات العرق تنزلق على ظهرى سريعة ، متتابعة .

أرقب الممرات الرخامية بين أحواض الزهور والتى تؤدى إلى أبواب زجاجية كبيرة ، عسلية اللون ، محكمة الغلق ، تخفى خلفها برودة ممتعة وقاتلة . فى الجهة المقابلة ، يقع : ساكن مستكين مستو بلا طيور على صفحته غير قادر على إرسال موجة واحدة ضعيفة إلى الشاطئ ، تحمل معها نسمة هواء وبعض أمل .

الشاطئ صامت خال ، والشمس سيدة الدنيا تنزلق فوق

القوس الرمادى ، فى دعة تتثاءب وتغطس فى ماء البحر المتدرج من خضرة طحلبية نحو زرقة قاتمة.

الخفير الصعيدى ينادى علىّ . هل لمح ترددى وحيرتى وتقلب وجهى بين السماء والجبال والبحر وقرص الشمس الذى غاب أغلبه وتشعع ضوء ما بقى منه ليملأ السماء بخيوط من الضوء لا لون لها ولها كل لون .

جلست إلى جواره على الرمل ، تحت نجمة ثمانية من البوص .

- تشرب شاى ؟

لم ينتظر ردى ، مد يده إلى البراد الصغير وغسله بماء من صحيفة إلى جواره ، ثم وضع فيه القليل من الماء والكثير من الشاى ، بعدها وضعه على جمرات تحيطها أربع قوالب طوب من الطوب الحرارى ، يقلبها بقطعة قصيرة من الخشب .

ناولنى رغيفًا فرك فيه قطعة جبن . تناولته صامتًا وأخذت أقضمه وأنا أنظر إلى البحر ولا أرى شيئا.

ناولنى رغيفًا آخر نظرت إلى عينه فابتسم وهز يده . أخذت الرغيف وعدت إلى البحر .

الشاى ثقيل ، مر ، لكنه كل ما أحتاج الآن . أشربه ببطء وأنا أستمع لقصة ذلك الصعيدى الذى جاء إلى هنا قبل أن ترتفع كل هذه البنايات الأنيقة الغريبة المصطنعة . لكنه - ورغم ذلك - لم ير السمك الملون بين الشعاب المرجانية ولم ير المراحيض الخرافية فى القرية السياحية . لكنه رأى النساء الحمراوات كالطماطم دون ثياب ينزلن إلى البحر . هو كأبى الهول قابع على الرمل يعرف كل شىء ويرى كل شىء . يرفض ما يرى ويكره ما يعلم ، دون أن يؤثر هذا على السلام الذى يرف على وجهه أوينتقص من ابتسامه شيئا .

اقترح علىَّ أن أستريح قليلا على أرجوحة شبكية إلى جوار النجمة التى نجلس تحتها حتى يحين موعد أتوبيس المنصورة .

فردت جسدى عليها فأحسست بألم قوى ضاغط ، ما لبث أن انسحب وغابت الشمس تماما . دقائق وأضاءت القرى السياحية أنوارها وبدأت فرقها الموسيقية فى العزف . أصطفى لحنى الخاص . . الدنيا ريشه فى هوا . .

يشتد الهواء ويظهر صوت الموج ، كذلك تهتز

الأرجوحة . أهتز معها وأرتفع رويدا رويدا ، أرتفع ويكون ارتفاعى حقيقيا .

فقاعة هوائية كبيرة ملساء تحتوينى وتنزلق بى على الهواء الجديد البارد القادم من البحر . أكون ساعتها بلا رغبة ولا إرادة .

كم من الوقت انقضى قبل أن يوقظنى ويقدم لى كوبًا آخر من الشاى ؟ هل سأعود إلى القرية ، أم سأبدأ محاولة أخرى جديدة ، فاشلة ؟

(٢)

زحام كبير ، أجساد تدفع وأخرى تضغط ، من يدخل البوابة الكبيرة يسألنى فأعطيه رد من سألته حين دخلت : لا أعرف .

- سمعت انهم عايزين أربعه بس .
- وأنا كمان سمعت .
- وأنا كمان . . سمعت .

زحام كبير ، أجساد تدفع وأخرى تضغط ، من يدخل من البوابة يسأل من سألنى فيعطيه إجابتى . الوقت يمر ببطء .

- أنت منين ؟
- دكرنس دقهلية .
- وأنت منين ؟
- الحامول كفر الشيخ ، ومحمد من حوش عيسى ، بحيرة .

زحام كبير ، أجساد تدفع وأخرى تضغط ، من يدخل

من البوابة الكبيرة يسأل نفس السؤال فيأخذ نفس الرد .
الوقت لا يمر .

– أنا سيئ الحظ ، هذه هى المرة العاشرة خلال أسبوع واحد ، ولا فائدة على ما يبدو . لما ضاقت بى الأمور وأصبحت نظرات أبى وأمى سياط لا تُحتمل ، عملت مع ابن خالتى أستورجى ، تعلمت بسرعة وتحملت « السلر» الذى كان يأكل يدى ، وتحملت كذلك رائحة الورنيش . كنت أكنس الورشة وأرش أمامها فى الصباح وأخرج قطع الشغل وأعمل الشاى . . لى وله . لكنه سافر إلى العراق . ذهبت لأعمل فى ورشة أخرى لكنى تشاجرت مع صاحبها وضربته . بحثت عن عمل آخر فلم أجد . يقولون إنهم يحتاجون أربعة فقط وهنا أكثر من ألف .

– أنا سيئ الحظ ، عملت فى أشياء كثيرة وأماكن كثيرة : فى اسكندرية ودمياط ورأس البر . شهر جرسون وشهرين حلوانى ، وثلاثة أيام منجد أفرنجى ، وأسبوع واحد مندوب مبيعات . . كنت أدور على المصالح الحكومية والبيوت والمقاهى لأبيع شنط . شنطة لا أدفع فيها أكثر من جنيه ، كنت أبيعها بخمسة عشر جنيها ولى نسبة

١٠٪ من المبيعات بشرط أن أبيع - وبحد أدنى - بألف وخمسمئة جنيه . لم أبع غير ثلاث فقط طوال الأسبوع ، واحدة لأبى والثانية لأمى والثالثة لخالتى وعندما حاولت أن أبيع شنطة لعمى قلدت المدير : هذه الشنطة مصنوعة من الحرير اللبنانى وهذه البطانة من البيلاستيك البلجيكى والجزء السفلى من الكرتون المقوى مغلف بجلد ليسهل تنظيفه . ضحك عمى ضحكة كبيرة وقال أنه سعيد لأننى أصبحت « نصاب دولى » . وبحثت بعدها عن عمل آخر ولم أجد . يقولون إنهم يريدون أربعة فقط وهنا أكثر من ألف وأربعمئة .

- أنا سيئ الحظ ، كنت أعمل فى مزرعة نموذجية تملكها مطربة شهيرة . كنت أشرف على قسم الدواجن ، كنت أعمل كثيرا ، لكن مرتبى كان كبيرا . . وفى أحد الأيام احتجت إلى مساعد . فسافرت إلى البلد وأحضرت ابن عمى ليعمل معى لكنه- وبعد أسبوعين فقط - اتصل بصاحبة الزرعة وأبلغها كذبا أننى أسرق المزرعة . ولما أرسلت مدير أعمالها وجد فى غرفتى ، وتحت مرتبة سريرى ساعة ذهبية كانت أول مرة تقع عينى عليها بعيدا عن معصم المطربة الشهيرة . لمحت على شفتيه ابتسامة فرح حاول إخفاءها

لكنها ظهرت وهو يودعنى ويتمنى لى التوفيق فى عمل آخر . ناولنى خمسين جنيها وأقسم أنه حاول ما يستطيع لكى يمنعها من إبلاغ الشرطة . حملت حقيبتى على كتفى وبحثت عن عمل آخر فلم أجد . يقولون إنهم يريدون أربعة وهنا أكثر من ألف وستمئة .

- أنا سيئ الحظ ، كنت أعمل فى دهشور ، تحت شمس دهشور وفوق رمل دهشور . أطارد الحلم وأهرب . وأقضى الساعات الطوال فى حركة قاتلة ليس لها معنى ولا هدف . فقط أحمل وأمشى . ثور يجر ساقية تدور ويدور معها . أنتظر من يوقف الساقية فلا يجىء كنت أتعجب من جسدى وأشك أحيانا أنه لى . تحملت لكن أحدا لم يتحملنى ، لا صاحب العمل ولا صاحبة البيت ولا أصدقاء شربوا سجائرى وأكلوا عيشى وملحى .

أطارد الحلم والفشل يطاردنى . كيف أعود ، ولماذا خرجت ؟ وماذا أفعل ؟ أشار علىَّ أولاد الحلال بأهرام الجمعة : فرصة ذهبية للشباب الطموح ، يشترط الجدية والتفرغ وأحيانا الجدية فقط . مطلوب مترجمين . للسعودية فورا مرتب + عمولة . شركة أمن تطلب . . يشترط إجادة الإنجليزية . سكرتيرة حسنة المظهر . سائق رخصة درجة

أولى . لمدرسة خاصة بالمعادى مطلوب مدرسين ٣ سنوات خبرة . ثلاثة أسابيع وأنا أبحث عن عمل آخر فلم أجد . يقولون إنهم يريدون أربعة وهنا أكثر من ألف وسبعمئة .

- أنا سيئ الحظ فهذه أول مرة أبحث فيها عن عمل .

زحام كبير ، أجساد تضغط ، أخرى تدفع لم يعد أحد يستطيع الدخول من البوابة الكبيرة .

- أحببت جارتى ، ولما أعلنت قلة حيلتى وهوانى على أهلى ، قطعت شرايين يدها اليمنى ونزفت حتى كادت أن تموت .

- أنا أعرف فتاة قطعت شرايين يدها بموسى ونزفت حتى ماتت .

- أنا أعرف فتاة كانت تحب صديقى ، لكنهم أرغموها على الزواج من ابن عمها فحاولت الانتحار فألقت بنفسها من الطابق الثالث لكن حبل الغسيل خفف من قوة ارتطامها بالأرض . قضت عاما فى الجبس وهى الآن تمشى بصعوبة وتعمل فى محل ملابس .

- أنا أعرف واحدة أحبت فاحترقت .

- أنا أعرف واحدة أحبت شخصا سافر إلى العراق .

ولما عرفت أنه مات هناك ، وأن عمه سيذهب ليحضره فى تابوت ، اختفت ثم ظهرت جثتها طافية بعد ثلاثة أيام . كانت منتفخة زرقاء ضائعة الملامح ورائحتها لا تطاق .

– أنا أعرف فتاة أحبت وأرغمت على الزواج من رجل لا تحبه فبكت كثيرا ثم حاولت أن تضحك وهى فى الكوشة ، بل وحاولت أن ترقص أيضا . لكنها سمعت أغنية عن الحب والهجر والوصال والقسمة والنصيب والحبيب ، فبكت وحاولت أن تتماسك فلم تستطع ، لكن أختها الكبرى – المجربة – أنقذتها بأن احتضنتها وقالت للعريس المتجهم : دى دموع الفرح . أما المحب فكان يشعل سيجارة من سيجارة ويتحاشى النظر إلى التى تجلس فوق كرسى عال تحيطه زهور حمراء وبيضاء وصفراء . ولما دمعت عينه بسبب دخان السيجارة . خاف أن تراه وتظن أنه يبكى فتبكى . أحبت وتزوجت وحاولت أن تضحك بدل أن تموت ، أما هو فجاء إلىّ فى الثانية بعد منتصف الليل وحكى لى وجعلنى أبكى .

– أعرف فتاة تخاف أن تحب .

على كورنيش النيل ، كان العريس يفتح باب السيارة ويمد يده ليأخذ يدها . نزلت من السيارة وتأبطت ذراعه ووزعت

ابتسامة واثقة مدروسة على الواقفين مع إيماءة من عينيها الخضراوين الرازحتين تحت كحل كثيف لكنه وقور وناضج .

كانت تمسك بيدها مروحة بيضاء منقوشة بزهور خضراء رقيقة وفراشات وردية دقيقة . ترتدى جوانتى من دانتلا بيضاء استمدت نعومتها من ملامسة الأصابع شديدة الامتلاء والبضاضة ، تحيطها خواتم لمعتها غير مألوفة . ينتهى الجوانتى بعد المعصم بقليل ، يجىء انتهاؤه عاقلا وحكيما ؛ حيث يترك مساحة مابعد المعصم إلى ما قبل الكتف بقليل مكشوفة وكاشفة توجع القلب .

شعرها الكثيف ملموم ومضموم ومرفوع إلى أعلى بتاج ترصعه ماسات كثيرة تتدرج فى الحجم مع تدرج التاج من المنتصف إلى اليسار ومن المنتصف إلى اليمن ، أما المنتصف فلماسات كبيرة وحقيقية ، وباقى الشعر يختفى خلف الطرحة التل البيضاء . فستانها بلون الفل ورائحة الياسمين ، وأنا أحب رائحة الياسمين ، وأوراق الفل والياسمين تطير فى الهواء وتسقط فتضيع فيها وتبقى واضحة على البدلة السوداء .

وجهها ردّنى إلى قمر الصحراء الفضى ، رقبتها زبدة جدتى ، والمكشوف من صدرها رغوة ماء البحر .

وهواء البحر القوى يحمل رائحة الياسمين ، والموسيقا تعلن أن الدنيا ريشه فى هوا .

ثم أنه لما خطرت العروس قمر الزمان وست الحسن والجمال والدلال والاكتمال والكمال على البساط الأحمر ، صدحت الموسيقا وارتفع الغناء ونثرت الدنانير ووزعت كئوس الخمر وماء الورد . كما اصطف الجند عن اليمين وعن الشمال شاهرين السيوف ، رافعين المشاعل .

البالونات الملونة تطير فى الهواء خفيفة الحركة بطيئة السقوط ، تقترب من ألسنة اللهب - لهب المشاعل - فتنفجر وتتهاوى شظاياها المطاطية المكرمشة ، تحمل رائحة الاحتراق .

خفَّت فوضى الزغاريد والطبول والمزاهر بعد أن انسحبت إلى الدخل لكن ذيل فستانها الطويل ما زال يطفو على موج السجادة الحمراء .

أخرج كل منا ما فى جيبه من نقود . اشترينا بكل ما معنا كومة سندوتشات فول وطعمية وعلبة سجائر أقسمنا ألا تبيت للغد .

أكلنا وشربنا وضحكنا وتواعدنا على اللقاء - لقاء أعرف

أنه لن يتم إلا بصدفة بحتة - ثم تمنى كل منا للآخر حظا سعيدًا وليلة أقل جمالا من ليلة كهذه.

فى جرائد الغد سأطالع صورة عرسها وأقصها وأطويها وأضعها فى محفظتى . سأعرف أنها لما دخلت وجلست على الكوشة (المصممة فى روما) رقصت راقصة شهيرة ثم راقصة أكثر شهرة ثم غنى مطرب شهير تلاه آخر شهرته تجاوزت حدود القطر ، وأن الحفل استمر - فى قاعة الأحلام - حتى الساعات الأولى من الصباح ، وأن العريس قدم لعروسه طاقم ألماس صنع خصيصًا فى بلاد الجن والملائكة والشياطين ، وكذلك الفستان الذى صمم خصيصًا لها . وعرفت أيضا أنهما طارا بعد الحفل مباشرة إلى كاليفورنيا والتى استُقدمت منها تورتة الزفاف المكونة من طوابق سبعة .

فى الصفحة المقابلة كانت شركة أمن تطلب . . وشركة نظافة تطلب . . عمال ومندوبين .

لكننى وقبل أن أنام عانيت تأنيب الضمير - لم يدم لوقت طويل فى الحقيقة - لأننى أخفيت نصف جنيه عن صحبة الخير لأشترى به سندوتش فول أو طعمية فى الغد ،

سوف يختفى هذا التأنيب تماما عندما أقابل محمد حوش عيسى بحيرة ويعترف لى أنه (دكّن) جنيهًا كاملاً .

سأنسى الآخرين ، أسماءهم وبلادهم وملامحهم ، لكن محمد سيظل له مكان حفر عميقا بقلبى . سأبكى يوم أودعه وهو مسافر إلى ليبيا ، وسنضحك معًا حين نتقابل في الإسكندرية ، فى شارع خالد بن الوليد . عندما يقول ضاحكا : منحوس بلده بلاد منحوس الناس . سوف يصر أن يعزمنى على شاى (بفتله) ويقول بفخر وبلادة : بعت اليوم عشرين جوز شراب ومنديلين .

لكنه سيتحدث يومها بعصبية بالغة تكهرب سير الحديث ، سيتحاشى التقاء نظراتنا ؛ فينقبض قلبى ويتراجع سؤال كان على طرف لسانى عن بنت كان يعرفها وكانت تخاف الحب . سيدفع حساب الشاى ويتركنى وحيدا أنظر إلي ظهره وإلى الشنطة الكبيرة المنبعجة المتدلية إلى جانبه من حزام يضعه على كتفه الأيسر ، بيده اليمنى أمسك منديلا وجوز شراب رصاصى فى كيس بلاستيك لامع .

ينادى بصوت مختنق ممطوط مفتعل : مناديييل وشراباااات .

أدركت أنها أحبت وماتت بطريقة ما . ربما فى هذا البحر الكبير الأسود المخادع القذر الجبان الحقير . ربما تزوجت وحاولت ألا تبكى فبكت ، أو تاهت فى دنيا مليئة بأمواس تقطع الشرايين . أو سكبت جاز الباجور على شعرها الطويل الكثيف اللامع حتى أغرقت ثيابها ، ثم أشعلت عود كبريت ، تأملته طويلا أثناء اقترابه الحذر من جسد ملأ الدنيا صخبا ، لكنه - وقبل أن يلامس جسدها - كانت قد احترقت .

ربما وقفت تتأمل النار الشبقة سريعة الانتشار ، ربما تنهدت وأطبقت شفتيها على أمنية للغائب .

حتى تلك اللحظة . . كانت النار محايدة ، تأكل خشبًا أقصد جسدًا آخر ، بعد ذلك بلحظات ، صارت معادية ، مهاجمة ، ناهشة .

كان كريما معى هو الآخر ، لم يسألنى عن الحلم وما تحقق ، فلم أضطر للكذب أو المراوغة أو الصمت ، ربما لو سأل لحكيت ، وبكى من أجلى ، أو على الأقل واسانى وطيب خاطرى ، ونصحنى بالصبر أو العودة .

ربما قال : لا تخجل ، ارجع ، ارحم نفسك من الفول

والطعمية وأهرام الجمعة وحجرة بلا كهرباء أو زجاج للنافذة .

ساعتها كنت سأقول : يا أخى ، أنت لا تعرف من أى الأشياء أهرب ، وأى الأشياء أطارد ، وأى الأشياء أرى فى النوم واليقظة .

(٣)

وحدث أنه بعد اختبارات عنيفة تحملها ، وقف بين يدى نقيب الشطار الذى تلا عليه القسم ورده خلفه فى خشوع تام : أقسم بالله والشعب المغلوب على أمره ورأس أبى أن أكون من الشطار ، آكل طعامهم ، وألبس إزارهم وأحمى حرمتهم ، وأطيع العريف والنقيب والقائد والأمير ، وأن أصبر على الأذى فى سبيلهم ، وأن أكون أمينا على أسرارهم ، لا أشى بهم قط ، حتى أذوق الموت .

بعدها قبل كف النقيب ووضعها على جبهته ، ثم توجه إلى الشاطر حسن وقبله ، بعدها ، جلس ليستمع لنصائح النقيب .

قال له : أنت من الآن الشاطر محمود .

وقال له : اسمع يا بنى ، نحن لا نسرق فقيرا أبدا ، بل نأخذ مال الله من الأغنياء ونوزعه على الفقراء . فكما ترى نحن لا نملك من حطام الدنيا سوى الإزار والدبوس . نحن لا نسعى إلى مأوى أو قوت . نسيح فى أرض الله ونأكل من

فتات مائدته ، نعيش فى المقابر والطرقات والمساجد ولا نقرب الخوانق كالدراويش .

ثم قال له : الدراويش والصوفية كلاب السلطة ، يعيشون فى كنفها ويلهجون بشكرها يجرى عليهم المماليك الأرزاق ، يوزعون عليهم قوالب السكر واللحم والفتة وأبشات الصوف والخبز والبوظة لينقطعوا للعبادة : قراءة القرآن والأوراد والبخارى ويحمدون فضل السلطان وينشدون مآثره للناس .

ثم قال له : لا ، إنها حيلة يخدعون بها العامة والسذج ، حكاية جرة اللبن التى حطمها الشيخ الحافى ووجد الناس بها حية هى حيلة من تدبيره هو . فعلها كثيرا فى أحياء المحروسة وغيرها . هو الذى يضع الحية بمعرفته ثم يتحين الفرصة وجمع الناس فينتفض ويزوم ويمرغ جسده فى التراب ثم يقف ويجرى نحو حاملة الجرة وهى زوجته ، وبعد أن يكسرها فتهرب الحية المسكينة يظهر أتباعه يهللون ويكبرون ويرمون فى حجره قطع الفضة ويتمسحون به ، يقبلون يديه وقدميه ، يتدافع بعدها الجمع المخدوع إلى إلقاء فضتهم فى حجره الواسع ككرشه .

ثم قال له : لقد عملت معه فترة ، كنا نخطف الأطفال ليلا ، ونذيع نهارًا قدرته على كشف الغيب ورد الغائبين . ثم قال له : الشطارة جسارة ، قوة وفتوة . تأخذ بيديك ما يأخذ غيرك بالخدعة والحيلة ، لقد كان قلبى يتمزق عندما أسمع امرأة تولول على صبيها المفقود . كانت تأتى إلى الشيخ الحافى بلهفة وتضرع ، تقبل قدميه الحافيتين القذرتين . تخلع كردانها أو قرطها أو تبيع عفش بيتها لكى يحضر لها الصبى الغائب .

ثم قال له : أولى شطاراتى كانت عليه هو ، خرجت عليه بالدبوس ليلا ، أخذت حصيلة يومه وجردته من ثيابه لأجعله أضحوكة الدراويش ، لكن الفاجر قليل الدين ادعى أن صاحب الروضة الشريفة دعاه ليلا ليغسل بدنه وقلبه مما قد يكون علق بهما من دنس الدنيا . . وصدقوه .

ثم قال بعد ذلك : الشطارة ليست جسدا فقط ، بل مكرا وحيلة لمغالبة الوقت وتصاريف الدهر ، نحتاج الدبوس حينا والعقل أحيانا .

ثم قال له : جسدك محتشد لكن عقلك فارغ . ما لنا نحن بالسلاطين وبنات السلاطين أو أميرات الحسن والجمال .

ثم ربت بكفه على كتفه وودعه ، وقال للشاطر حسن : هو عهدتك من الآن يا شاطر حسن . تابعهم الرجل حتى غابا فى انحناءة الحارة ، وابتسامة الظفر لم تفارق شفتيه . سحب نفسا قويا من النرجلية فأشعلت نارها من جديد ، أخرج الدخان من فمه وأنفه كثيفا مخروطى الشكل .

- ما رأيك يا شاطر حسن فى كلام النقيب ؟
- أى كلام فيه ؟
- الخير . . البعد عن السلاطين وبنات السلاطين .
- أتفق معه .
- ولكن فى حكايتك . .
- نحن الآن فى حكايتك أنت .

فى وقت آخر ، سيتحدث الشاطر حسن بملل ظاهر يتحول إلى غضب حين يقول : الشطار أغبياء ، لا يفكرون فى غير الحيل الظريفة ، والسرقات من التجار وسراة الناس .

ثم يقول : هم كالدراويش ، عرائس من قماش حشوها قش ، مشدودة بخيوط تنتهى أطرافها إلى أصابع المماليك .

ثم يقول : المماليك يا صديقى لهم ألاعيبهم التى تفوق

ألاعيبنا ، بل والتى لانفهمها حتى . فى رمضان يفتحون لنا مخازن الدقيق والحبوب ، ويملأون الأحواض بماء وسكر وليمون ، وينثرون الدنانير بيننا على الأرض ، ثم يجمعون ما نثروا العام بطوله .

ثم قال : بالأمس القريب ، وأنت بعد صبى فى الريف ، شهدت المحروسة ثورة الجياع . هاج خلق كثير وهجموا على الدكاكين والوكالات ونهبوا الأسواق عندما علموا أن قوافل كثيرة نهبت وأن الطريق إلى المحروسة مقطوع . كان هذا فى الصباح ثم حدث أنه بعد الظهر نادى المنادون أن قصر المحتسب ينهب فهب إليه الشطار ، وفى المساء جاء جند المماليك يعملون فى الرقاب السيوف .

حملوا علينا حملة كبيرة بعد أن أغلقوا أبواب المحروسة واستردوا ما سُلب .

ثم قال : كان الشطار ممتلئى البطون من الأكل وشرب البوظة والحشيش .

ثم قال أخيرًا : أكلوا وشربوا وماتوا فى لعبة من ألعاب المماليك ، لعبة كثيرا ما لعبوها مع بعضهم بعضًا .. نحن مساكين يا شاطر محمود .

(٤)

كيف لم أنتبه لهذه الكتب من قبل ، لابد أن ساكن الغرفة قبلى نسيها أو تركها . موعود أنا بالكتب القديمة .

جلست على الحصيرة ووضعت الكومة أمامى أقلب فيها لقتل الوقت .

النهر الهادىء ، مؤلفات ماوتسى تونج المختارة ، أعداد من مجلة السياسة الدولية ، تاريخ الفكر المصرى الحديث ، ألف ليلة وليلة ، دراسات فى النظم والمذاهب ، تخليص الإبريز الجزء الأول ، الأدب الشعبى ، هؤلاء علمونى ، الثورات فى أمريكا اللاتينية ، الفنون والجنون . .

كتب كثيرة بها رائحة الزمن ، ورائحة العرق وإهداءات من ناس ربما ماتوا جميعا ، لكن نظرة اندهاشهم مرسومة على الورق ، بين السطور .

أسهم وعلامات وخطوط تحت كلمات وفقرات تبدو مهمة . خطوط تمتد وتقصر وتطول فتمهد الطريق ، وتجبر العين على القفز من خط إلى خط .

قلت لنفسى : هذه الكتب ثروة .. فى الغد سأبيعها لمطعم أو لمقلة لب أو لأحد باعة الكتب فى العتبة .

سأذهب فى الغد ، وسوف يشتريها منى رجل يبحث فى الكتب القيمة ، لن يساوم بل يعطينى عشرة جنيهات ويخفى ابتسامة ظفر ، ويعطينى سيجارة ونصير أصدقاء .

ستدور الأيام بنا دورتها ، وسأعرف أن اسمه الأستاذ / أحمد وأن الندبات الثلاثة حول عينه اليسرى هى شظايا أصابته فى حرب الاستنزاف .

تحدثنا كثيرًا تحت سحابة كثيفة من دخان السجائر . كان يعرف كل شىء ، وأى شىء . قال أنه يحبنى - ليس الكتب فقط - ولكن لأننى أشبه صديقًا قديمًا كان يعرفه . كان يشعل السيجارة ويترك عود الكبريت مشتعلا ، يدوره بين سبابته وإبهامه فتدور النار مترددة بين التأجج والانطفاء ثم يلقى عود الكبريت على الأرض أسود نحيفًا هشًّا . كان يشير إلى محذرا : لا تثق برأس المال فهو طفيلى سمسار .. اضرب و اجر .

كان يقول لى وقد تصلب وجهه وتشنجت عضلاته : الشاطر حسن أسطورة المقعدين والعجزة ، من هانوا ولانوا

واستطابوا جلسات المصاطب . نصبوه شاطرًا - فى خيالهم - لكى يحارب عنهم بالنيابة ، يحارب وينتصر ويقيم العدل المفقود .

كان يقول لى : لا ، لم يكن يحب الأميرة ، لقد كانت مجرد حيلة ليصل إلى كرسى السلطان دون أن يموت السلطان .

كان يقول لى : أنت غبى ؟! لو علم السلطان أن الشعب يتمنى موته ، فسوف يغضب ويرفع الضرائب ويخوض حربا يهلك فيها شعبه ويتزوج مثنى ، وثلاث ورباع ليضمن وريثا للعرش .

كان يقول بصوت متهدج : الحب موجود ، لكنه ليس لنا .

كان يقول : نحن براغيث الأرض ، وهم يهربون منا دائما . ليس احتقارا ولكن خوفا . سيذهبون فى الزمن الآتى بمدنهم بعيدا ويبنون الأبراج ، ويحضرون لها بوابين من الصعيد ويحضرون لشققهم خادمات من بحرى ومن الفلبين .

ثم قال لى : تعلمته من شخص لم أعرف اسمه الحقيقى أبدا . كان يشبهك كثيرا ، له نفس لكنتك وصفاء عينيك . . لكن وجهه كان أكثر صرامة و . . كان يرتدى - دائما -

كوفية زرقاء ، طرفيها على صدره ويختفيان تحت الصديرى الأسود ومن فوقه بالطو قديم أسود ، لم يكن يرتدى غيره .

كان يلبس خاتما بفص أزرق فى خنصره ، ويدخن بشراهة عجيبة . كأنى أراه الآن ربما مات .. مات .

ثم قال لى : قلت لك لا أعرف اسمه أو حتى بلده ، كان من الأرياف ، فلاح مثلك كل ما أعرفه أن اسمه الكودى كان (أبو سليمان) وهو اسم كودى !!

فى آخر لقاء لنا كنت عصبيا ، وكان هو هادئا على غير العادة . كنت أمتص دخان السيجارة بنفس طريقته.

قلت له : لقد تعلمت منك الكثير .. هذا صحيح ، ولكنك كذبت على كثيرا .. وهذا واضح .

قلت له : أشكرك على كل شىء لأنك اكتفيت بإحراق سجائرى وحلمى فى طقسك الوثنى الثرثار . بداخلى جزء يحبك جزء صغير جدا ، لو أعرف لذلك سببا !

قلت لنفسى : هذا الرجل منذ قابلته واشترى منى الكتب وحتى هذه اللحظة ، لا يبدو حقيقيا ، كان حبكة فرعية فى مسرحية ما ، أو شخصية عظيمة فى رواية ، يحمل رسالة ، يلقيها فى طريق البطل ويختفى بطريقة ما .

ثم قلت له : كان جسدى ، لحمه ودمه ، خبزك وخمرك فى عشاءاتك المتوالية .



الفصل السادس



(١)

قطار الإسكندرية من المنصورة ليلا غير مزدحم . قلائل يجلسون فى زوايا العربات . أضع الشنطة البلاستيك الخضراء المكتظة على الرف بجوار الشنطة « الهاندباج » . أجلس على كرسى بجوار الشباك وأضع قدمى على الكرسى المقابل . أشعل سيجارة وأرتب كلام جدتى وشكل اللقاءات . صورتها محفورة بداخلى منذ جاءت عندنا أول مرة . لم تضحك يومها ، لكنى رأيت ابتسامتها فى صورة صغيرة بالأبيض والأسود . رأيتها فى دولاب جدتى ، وسط الأوراق الكثيرة القديمة الصفراء الحواف . نفس النظرة العميقة الذكية المتعالية . كيف استطاعت أن تواجه الكاميرات فى مثل هذه السن بكل هذا الثبات والنضج ؟ بالطبع تغيرت ، صارت أطول وأكثر ثباتا وجمالا . هل ستفتح الباب وعلى ملامحها جمود وفى صوتها حدة ؟

- عليكم السلام . . خير !

- الأستاذ . . أحمد موجود ؟

- لحظة واحدة .

هل سترد الباب دون أن تغلقه وتنادى أباها الذى سيخرج مسرعا ، يفتح الباب وذراعيه ويحتضننى ويخطئ فى اسمى ، ويحل الشنطة البلاستيك المكتظة .

القطار مندفع يشق الليل . لابد أنها طالبة ، سوف يطلب منى ابن عم أبى لزم أن أساعدها فى الإنجليزى . سوف ترفض فى أول الأمر وتقبل بعد ذلك تحت ضغط والديها . اندفاع القطار صار حركة رتيبة .

الإسكندرية أخيرًا . . وشيش البحر ورائحته . حملى ثقيل لكن البحر لا يقاوم .

- الليلة بخمسه جنى .

- كثير .

- خد سرير مشترك باتنين جنى .

ليلة بالطول أو بالعرض سوف تنقضى ،و فى الصباح أبدأ جولتى . المدرسة ، البحث عن سكن ، ثم ابن عم أبى لزم .

اختبار القبول سهل للغاية . المديرة حازمة والزملاء فى غاية الظرف . سعداء بالفلاح القادم من المنصورة . صوت البحر فى كل مكان . المدرسة جميلة . كانت قصرًا لأحد

باشوات زمان . ياسلام ، كل قصور باشوات زمان متشابهة . أحجار غليظة ، سور مرتفع ، بوابة ضخمة ، فناء فسيح ، طوابق متعددة وأبراج .

لماذا الأبراج ، ولماذا يختارون لقصورهم أماكن بعيدة ، على أطراف المدن ؟ للراحة والدعة أم خوفا ! يزحف الرعاع على أماكنهم شيئا فشيئا ويبنون بيوتا عشوائية صغيرة يتكدسون داخلها ويفسدون الذوق السليم ويلوثون نسمة الهواء برائحة الطبيخ والبول .

البرج قبة مجوفة مستديرة بلهاء ، بها فتحات مستطيلة يظهر من إحداها جزء صغير من البحر من بين العمارات الشاهقة بخزانات بيضاء وأطباق معدنية ضخمة على أسطحها . ألوانها متعددة والبحر أزرق . صمتها أكيد و وشيش البحر فى كل مكان ، ورائحة الشتاء ترف فى الهواء .

مدرسة خاوية ، أسبوع واحد وتمتلئ بالطلبة . حكايات المدرسين عنهم لا تطمئن . حيوانات صغيرة غنية غبية . تحذيرات المدرسين ذوى الخبرة غصة فى الحلق ، لكنها مفيدة ، تقتل الوقت وتزيد الألفة ثم تتحول إلى بحور عميقة أمواجها تتلاطم .

أهرب إلى البرج أو الفصل الأخير فى الطابق الثالث . سبورة خضراء ولوحات أنيقة . على الجدران أسماء مرصوصة ، أسهم وقلوب وبهجة وتعليقات ورسوم . أسماء مكتوبة بالطباشير والأقلام الرصاص بعضها حوله دائرة أو تحذير . أسماء غريبة ، غير مصرية على الإطلاق أو تنتهى بألقاب شهيرة ، تظهر كثيرًا فى صفحات الجرائد أو على شاشة التليفزيون . . . أسبوع وألتقى بالوجوه.

فصل كبير . . كان حجرة . حجرة واحدة بحجم دارنا . فى أى زمن كانت هذه الحجرة مشحونة بقلق أنثوى يتقلب بين ستائر ثقيلة قانية الحمرة . البحر لم يكن محجوبا وقتها بالطبع والمسافة إليه رمل وردى لين . الشباك واسع جدا والشرفة مستديرة ، إفريزها مشغول بأعمدة رخامية قصيرة مستديرة ولها انبعاج عند الوسط ، رخامها تحطم ولم يفلح الترميم فى إعادته كما كان .

المدينه بعيدة والسقف عال ، معبد مهجور يتردد فى جنباته صفير الريح القوية . أى رهبة تحتل المكان ؟

هل كانت الكهرباء موجودة فى ذلك الزمن البعيد أم ضوء شموع غليظة طويلة ملونة ، شموع تحترق ببطء ،

لاحتراقها رائحة زكية ، وظلال ضوئها مرمية على الجدران والممرات الكثيرة ، تتكسر بين الأرضيات والحوائط وتخفى شوقا مكبوتا متراكبا يوشك على الانفجار .

الشباك ضخم والحجرة كبيرة والشرفة مستديرة تحتها زهور حمراء والبحر قريب لكن السور عال والمسافة إلى البحر طويلة ومكشوفة.

رائحة الشوق المخزون واضحة . الممرات المظلمة كهوف تحمل ترددات وقلق ومغامرة اندفاعاتها محسوبة . أناس متخمون بالطعام الجيد والخمور الغالية ، يتحدثون الفرنسية مطعمة بالتركية والعكس .

الحديقة الواسعة تلاشت منذ زمن قريب ليقام مكانها ملحق للمدرسة مكون من ثلاثة طوابق . الممر الواصل بين البوابة الخارجية والسلالم الضخمة المؤدية إلى باب القصر الكبير ذى الزجاج الأزرق المزركش - انقسم إلى نصفين ، الأول موقف لأتوبيسات المدرسة والثانى فناء يقف الطلبة فيه أثناء طابور الصباح ويؤدون التحية لعلم مصر !

حجرات الخدم تحولت إلى حجرتين للمدرسين وحجرة للإداريين ، كما تحولت حجرة الخفير إلى مكتب للوكيل

ومكتب ضخم فخم للمدير يطل من أعلاه تكييف ومكبر صوت .

الشقة ثلاث حجرات . فى الأصل كانت حجرتين لكن المطبخ عديم الجدوى تحول إلى حجرة بها سريران . الحمام فى المسجد القريب لحين تجهيز الحمام واستكمال تشطيب الشقة . المهم ، أنها قريبة من المحطة ويمكن رؤية الملاحات والطريق الدولى من فوق السطح . يا له من منظر عند الغروب ، على الأقل يعوض غياب البحر . ولكن وشيشه ما زال داخلى .

بعد أن ساعدونى فى ترتيب حاجاتى ، اقترحوا أن ننزل إلى الإسكندرية . وأين نحن ؟ ألسنا فى الإسكندرية ، بيننا وبين محطة الرمل ساعة بالميكروباص وساعة ونصف وقوفا بالأتوبيس .

طلبت منهم تأجيل النزهة للغد ، وسألتهم عن كيفية الوصول إلى بيت ابن عم أبى لزم . الشنطة مكتظة والوقوف طال . نهر الناس لا يتوقف وكذلك الأتوبيسات . يجب الجرى والقفز والتماسك ثم الغوص إلى الداخل ، إلى الحرارة التى لا تطاق ، أين البحر ؟

المسافة طويلة، لا أمل فى الجلوس . كان ينبغى أن أنام

قليلا لاحتمال هذه المغامرة . أسأل من جديد عن العنوان . ساعتان ونصف ولم أصل بعد . كل ما أتمنى أن ألقى هذه الرسالة من جدتى إلى ابن عم أبى . آه . وأن أرى وجهها وعمق عينيها .

– مين حضرتك .

– الأستاذ . . أحمد موجود .

– حضرتك مين ؟

– قريبه من اللبلد .

– لحظه واحده .

ردت الباب دون أن تغلقة ونادت على أبيها الذى خرج مسرعا وفتح الباب وذراعيه وحمل الشنطة عنى بينما هى تنهره لأنه خرج دون أن يرتدى الروب . ضحك وقال:

– آسف يا ستى . . ازيك يا محمود .

– دا مش محمود .

أبهجنى ذلك وأدهشنى فى نفس الوقت . الوقت ؟ كم من الوقت مر ؟

– مدرس إنجليزى . . ما شاء الله . . ربنا يحميك يا ابنى .

- أحمد فى التجارة فى عين شمس وغادة فى رياض أطفال .

- والله ؟

- بس خايبه فى الإنجليزى .

- ماما .

- أنت مكسوفة ، دا ابن عمك .

- أبوه اللّه يرحمه ابن عمى لزم يعنى هوه ابن عمك .

صينية من الفضة وضعت على مفرش عليه صورة فارس يقف إلى جوار حصان يشرب من حوض حجرى مستدير ، وفتاة بملابس العصور الوسطى تحمل دلوا وتنظر إلى الخلف نحو الفارس بدلال ومكر شديدين . الفارس لا يبالى وأنفاس الحصان تزيح الماء فى دوائر .

كمون الحجرة ناشئ عن توازن دقيق بين الكراسى والكنبة الكبيرة . طاقم كامل منسجم عسلى وقماشه قطيفة بنية مضلعة ، بروزها واضح . الستارة سكرية اللون خرومها تشكيلات لزهور وفراشات كثيرة مستنسخة متوجة بتموج الستارة . تموج يلقى ظلالا دافئة . فى زوايا مناضد رفيعة خشبها بنى وسطحها من الرخام الأبيض المجزع بخطوط

رمادية وبيضاء تظهر تحت مفارش صغيرة تتدلى منها مثلثات صغيرة تحيطها شراشيب حمراء قانية عليها فازات بها زهور سماوية وبيضاء من القماش ، وأعناقها من البلاستيك الأخضر الغامق .

- اشرب العصير يا ابنى .

أتناول الكوب الذى يشبه الكأس ، انبعاجه طفيف وزجاجه شفاف ورقيق . به شىء أحمر جعلنى أضحك فى سرى وأتذكر رفضها الشديد لشرب الشاى عندنا فى زمان مضى . شكل دارنا وخواؤها أجبرنى على النظر إلى أسفل . السجادة حمراء بها فروع نباتات وأوراق سوداء متداخلة ، وحذائى مترب . أحس نظرتها إليه فأدفعه إلى الخلف تحت الكرسى . أعتذر لها ، بينى وبين نفسى ، وأتعلل بالطريق الطويل وزحام الأتوبيس . . ثم أعترف تحت ضغط عينيها بأننى أكره قضاء الوقت فى دهان الحذاء أو حلاقة الذقن . هناك أشياء أهم . ما هى ؟ لا أعرف .

صمت طويل يكهرب جو الحجرة . نظرتها فاحصة ، أحسها ولا أراها ولا أستطيع النظر إليها . فقط ألمح كف قدمها وقد خرج من شبشب وردى له وبر أرنب وقد اتكأت

على طرفه بإصبع قدمها الكبير . لكن الأرنب الخواف بالغريزة يهرب إلى جحره تحت الكرسى ، خلف ساقه الكبيرة .

وداع أمها كان لطيفا . لكنه محايد ، بارد وحقيقى . ألح ابن عم أبى كثيرا على أن أبقى معهم الليلة وذكر أفضالا وديونا فى عنقه ، إلحاحه مصطنع لكنه دافئ به حميمية . هى ترقب خروجى من خلف أبيها . أختلس نظرة خاطفة إليها وأنا أعتذر متلعثما عن عدم قدرتى على البقاء أكثر من ذلك . اصطدمت نظرتى بنظرتها فكانت شرارة .

هل كانت تبتسم وهى تقول : مع السلامه . وهى تضع يدها على رأسها وتنزلق بها إلى الخلف حيث ذيل حصان جميل ، لامع وسرى .

مهر صغير لم يلجم أو يسرج . فقط يمرح ، يضرب الأرض بحوافر جديدة ونزق .

يجرى ويجرى ويجرى فى خضرة ممتدة بلا انقطاع حتى يقابل السماء فى خط معتم خلف الأشجار السوداء البعيدة .
اليوم الخميس ، أسبوع مر . كيف ؟ لا أعرف .

لا وقت لدى لدهان الحذاء أو لحلاقة ذقنى .

الحمد لله ، نجلس متجاورين إلى منضدة فى حجرتها ، يختفى تحتها حذائى وخجلى .

هى لا تحب الإنجليزى ، ولا تحب أن يظهر ضعفها لآخرين ، والحب ضعف وصديقتها الوحيدة سافرت إلى مرسى مطروح وأحمد أخوها شقى ومستهتر ، يغيظها كثيرا . نظرتها المختلسة تزداد وضوحا وابتسامتها تتحول إلى ضحكة صغيرة لا تستطيع السيطرة عليها . كلامى مرتب ملىء بالاستطرادات والاستشهادات ، وكلامها بسيط قاطع حكيم ، لها حكمتها الخاصة وتأملاتها الذاتية ، لأنها تشعر بمسئوليتها تجاه الآخرين . هل أنا بينهم ؟

تلامس كفينا جاء صدفة فى أول الأمر . صدفة وقبة السماء زرقاء بنفسجية ، نجومها قريبة وكثيرة ولامعة ورائحة البحر فى كل مكان ، والشتاء يقترب .

(٢)

من للشتاء غيرى ، ومن لى غيرها.

أنتظر قطرات المطر الأولى ، تنزل نحيفة خجولة ، لا تبلل الأرض بل توقظها ، تطلق رائحتها الكامنة المبهمة .

أقف فاردا ذراعى وفاتحا فمى ، علَّ قطرة تلامس شفتى فأرتوى ، لكن شعرى هو الذى يمتص كل الماء ويلتصق بفروة رأسى . أكون ساعتها سعيدا : الدنيا بتشتى . . أروح لستى . . تعملّى فطيرة . . كنا نردد معًا ، بحماس لا يفتر إلا مع حمى الضحك الذى تضربنا جميعا إثر انزلاقنا الواحد تلو الآخر على الطين اللزج . كنت أخوض فى نقر الماء الصغيرة التى تملأ الشارع . أضرب بقدمى بقوة دافعًا الطرطشات التى تغرقنا وتُذهب الخوف ، وتوقظ الشوق للدفء والكمون .

الشارع خال إلا من أناس قلائل يجرون كالنمل بحثا عن ملجأ من المطر ، بينما أجرى أنا وهى كأننا نملك الشارع ، كل الشارع ، كل الكون ، الكون غابة استوائية مترعة بالمطر

وتضج بالحياة الساخنة كوجهها الذى صار شديد الحمرة .

تكون - لحظتها - رغبتى فى الاقتراب منها لا مثيل لها ، وكأن المطر أيقظ إحساسًا بدائيا لدىّ وجعلنى أحس أننا رغم اتساع الكون حولنا وحيدان ، مرتبطا المصير فى مواجهة أسطورية .

لماذا خلق الله أم كلثوم والليل والهادى آدم ورائحة النعناع وعينيك ، ووهج عينيك وحبى وشوقى لهما ؟ خلقهم لى ، من أجلى ؟

أجل .

خلقك من أجلى ، لكنه حجبك عنى دهرا ، ثم ألقاك فى طريقى الآن ليبدو الأمر كله صدفة خرافية ، أخرج بها من فخ شديد الإحكام لأقع فى فخ جديد أكثر غلظة ، ولكنه - وفى ذات الوقت - محبب إلى قلبى وقابض عليه .

كنت أسير وحدى ، فى ظلام محض . لم أحدد لسيرى اتجاها . إحساس قوى يملؤنى بأنى أسير فى خط مرسوم سلفا ، وأن علىّ أن أنتزع إرادتى وألا أقاوم هذه المشيئة .

تأكد لى - عندما رأيت عناقيد النور ، على البعد ، مصفوفة على شكل قلب كبير - أن السنوات الطويلة التى

وجهت لى الضربة تلو الضربة ، وأخرجت لى لسانها الطويل مشقوق الطرف تعد لى مفاجأة سارة . على سبيل المصالحة ، ربما .

أنت القطب القوى المسيطر شديد الرهافة والمراس ، وأنا - ككل من حولها - برادة ممغنطة ، خفيفة الوزن والإرادة ، محددة الشكل والاتجاه ، مصفوفة فى دوائر لا تقترب خشية الاحتراق أو تبتعد فتضيع .

حاولت الاقتراب وانتهاك المسافة ، ولكن الواقفين حولك حجبوك عنى . كنت مرهقة صفراء الوجه كما كانت رقصتك على وشك الانتهاء .

ربما كان حلما لكننى ، استيقظت منتشيا ونشطا . رأسى صاف جدًا كلوزة قطن كبيرة متفتحة إلى حدها الأقصى .

لا أثر لذلك الصداع الرهيب المستديم الذى يضرب ولا يرحم ، بل يكاد يشطر رأسى إلى نصفين ويخرج عينى من محجرها .

أخرج إلى الشارع فأحس أن قوة - متحكمة وقادرة - قررت أن تجعل صباحى هذا مختلفا فجعلت الشمس نصف شمس ، والمسافة نصف مسافة ، كما كان الهواء قويا منعشا

لدرجة دفعتنى إلى الغناء .. أم كلثوم تملؤنى وتفيض ، يخرج صوتى قويا منغما أستعذب صداه داخلى : بعد حين يبدل الحب دارا .. والعصاااا ---- تهجر الـ .

(٣)

هواء بارد . بحر بلا لون ولا نهاية . للحظة يتلاشى الناس والسيارات والكورنيش . رذاذ الضوء يختلط برذاذ البحر وتكون دوامة من الأزرق السماوى والأصفر الباهت والأسود . دوامة قوية لا يحتملها جسدى المنهك من السفر الطويل .

عقلى توقف فجأة عن ترتيب الأمور وتخيل الأحداث . صار أبيض تماما ، أبيض ونظيفًا كأنما دخل إلى الدنيا فى هذه اللحظة . ليس به شىء . كل الأشياء تسربت منه ، تبخرت بعد أن كانت مكدسة ومضغوطة بداخله . كما تشابهت الشوارع لدرجة أننى لا أستطيع الاهتداء إلى سكنى . الناس أيضا متشابهون . أبحث بينهم عن وجه مألوف فلا أجد . أبحث عن ملامحها وأخاف أن أطيل التحديق فأثير ضجرهم وأقاوم النظر وأحس ارتجافة قوية داخلى . انفجار يبدأ من مركز الجسد ثم يجتاحه .

يقشعر جلدى ويقف شعر رأسى . ليس لى صديق فى

هذه المدينة الكبيرة الغريبة علىَّ . صديق واحد أقضى معه فترة من الوقت وأفضى له بما فى صدرى . صدرى ؟ هل به شىء . . ؟!

أريد صديقا فقط ، يكلمنى هو ، يحكى لى عما بصدره هو . يتكلم وأنصت إليه وأنسى ما أحاول نسيانه ، وأبكى من هول ما يعانى ، أربِّت على كتفه وأشد من أزره كما أستحلفه بالله أن يتماسك وينسى ، وأذكر له كل ما أحفظ عن الصبر والقسمة والنصيب . عذاباتك يا صديقى لا تُحتمل ، يا صديقى الوحيد فى هذا الليل ، فى هذا العالم . ليس لى إلا أنت . هل تلقى بنفسك فى الماء وتتركنى وحدى فى الشارع الطويل الذى لا أعرفه ، ولا أعرف أين ينتهى أو كيف أخرج منه ؟! كلهم يرصدوننى ، يتربصون بى بمجرد أن تتركنى ، بل بمجرد أن تستدير ، سوف يهجمون علىَّ وينهشون لحمى بأسنانهم وأنيابهم . لست مثلهم ولن تنضم إليهم ضدى . أعرف أنك لن تخذلنى وستبقى معى حتى الصباح . حتى الصباح فقط . احتملنى واحتمل حزنى الليلة . أعدك أن أكون ظريفا . سوف أضحك ولن ترى دموعى أبدًا ولماذا أذرف الدمع وأنا سعيد لأنك معى . ألست سعيدًا أنت

أيضا . انظر ، إنهم يشيرون إلىَّ ويضحكون فتظهر أنيابهم البيضاء المسنونة لها لمعة ساطعة تعشى عينى وتجعلنى أنظر بين قدمى وأحس أننى عارٍ . ضحكهم له صوت وأصواتهم منفرة لها رائحة قميئة أهرب منها وتطاردنى .

الهواء قوى وملابسى خفيفة وجلدى امتلأ بحبيبات صغيرة لاسعة . حرائق تدب فى جسدى وتظهر ألسنة اللهب . تطارد ذكراها وليست ذكراها برأسى فقط ، بل على ساعدى وراحة يدى وأصابعى وشفتى وشعرى وجلدى .

أتطلع مبهوتا إلى البحر الأسود ، ليس به إلا موجات صغيرة جدا تتقلب وتقترب من الشاطئ وتفرز الزبد ثلجيا .

صخرة ميامى التى تحجز الموج وتجعل الماء بساطا شديد الملاسة ، تبدو من بعيد بنية اللون وتتشكل نسرا خرافيا . وأنا مربوط بسلسلة قدرها عشرون ألف ذراع . النسر يهاجم وجلدى يتجدد ، وقلبى المنزوع ينمو كبرعم زهرة . ينمو بسرعة كى يظل عذابى غضًا وقائمًا .

فراغ هائل يحيطنى وتتدفق إلى سمعى موسيقا حادة تثير أعصابى ، تضغط علىّ ، بينما الشاب الجالس خلف مكتب كبير يسوى شعره بيده اليمنى . عيناه خضراوان وشعره

مفروق من الجانب الأيسر ولمعة الفازلين واضحة عليه . وجهه هادئ به نضارة . أصابع يده اليمنى تدير دبلة ذهبية حول بنصر يده اليسرى ويسأل فى هدوء : لماذا سرقت النار ، ومديرة المدرسة تدير القلم بين أصابعها وهى تطلب منى أن أوقع على الاستقالة قبل أن أوقع العقد : كل المدارس الخاصة بتعمل ده كإجراء احتياطى ، وغادة تقول لى : لن يجبرنى أحد على شىء . لكن أمى وجدتى تضيّقان الحصار المضروب حولى . تتكلمان باللين مرة وبالشدة مرة وأنا أتعلل بالدراسة والأيام تمر .

يا أستاذ ممنوع الضرب . . أنت عارف بابا مين . . طظ فيك وفى أبوك . . ياابنى أنا عوزاك تعتبرها أختك وتخاف على مصلحتها ، إنت عارف ظروفك وعارف ظروف عمك . ثم قالوا جميعا بغضب جم وفى نفس واحد : العشرة منك بقرش . رذاذ الضوء ورذاذ البحر يصنعان معا دوامة واحدة وكبيرة من الأزرق السماوى والأصفر الباهت والأسود .

سيارة الإسعاف سريعة ، زجاجها عريض وواجهات المحلات اللامعة المضاءة بالنيون الأبيض القوى تتوارى إلى الخلف . موج من الضوء المتلاحق تبتلعه ظلمة ويأتى موج

جديد . ويد طيبة تدفعنى إلى الخلف كى أنام . هل هذا الكائن الجميل الطيب موجود فعلا بجانبى ؟!

الفصل السابع

(١)

تستيقظ فى ظلمة ساحقة وصمت أكيد ، تبحث بعينيك عن الضوء أو الوقت . لكنك لا تعرف إن كنت فى أول الليل أم فى آخره . تحس جسدك ثقيلا ، له كتلة وكثافة . كل جزء فيك يئن ، بخفوت وإلحاح . ألم تسرب وألم آخر باق تحت الجلد ، فى العظام .

من قلب الظلمة تخرج شمس كبيرة ، تجرى أنت تحتها وعلى كتفك مقطف . الرجال عند الخلاطة ينتظرون بملل ظاهر . أصواتهم تعلو ، تحثك على الإسراع . تحمل وتجرى وتفرغ وجبل الرمل لا ينتهى ، والرجال لا يصبرون ، والمسافة تزيد مع كل دورة ، والقميص الأبيض على رأسك لايمنع الشمس القريبة .

هدير الخلاطة أبدىٌ بإيقاع ثابت ليس به نغمة النهاية . الرمل على شعر رأسك . حاجبيك ، رموشك ، بفتحتى أنفك ، على شفتيك ، فى حلقك ، على جلدك مختلطا بالعرق . تصطفى صوت الصرير النهائى المتبوع بصمت عذب تمنى نفسك بسماعه .

لقد سمعته بالأمس ، وأول أمس وأول يوم ، ويوم اعتقدت أنه لن يأتى ، لكنه أتى ، وانفض جبل الرمل مرات ومرات . حدث هذا من قبل ، وسيحدث بعد قليل كما سيحدث فى الغد وبعد بعد الغد .

الآن ، جسدك يعمل وحده ، دون تدخل منك . تجلس أنت فى ظل صفصافة ، ترقب الجسد الملعون وترى إلى جواره الشاطر حسن أقصد محمود .

الشاطر محمود يحمل على كتفه مقطفًا من ذهب ويجرى ، يفرغه ويعود بسرعة ، يحضر غيره ويجرى . جبلين من ذهب وشمس كبيرة قريبة قادرة ووقت لا يمر .

جموع الجياع تصرخ : جبلين فقط . . . تحمل .

وجهها الهادئ وبسمتها المشعة تقول : جبلين فقط ، بعدها تنفتح بوابة القلعة وبوابة القصر وبوابة جناحى .

بسمتها بلسم يرطب كتفك المحترق ، وكفك الذى تشقق ، وتستبدل ملوحة حلقك بسكر . لكن شمس يونيو الكبيرة القريبة القادرة تلهب رملا تجرى أنت فوقه ، وتجعل ماءً يجرى بداخلك يغلى . بعدها ، ينشق الضوء الأصفر الحامى وتظهر بقعة سوداء ما تفتأ تتسع وتتسع . جبل ضخم

ينهار ، وكرابيج تلهب ظهرك ، ولكنها - ورغم إحساسك بها - لا تؤثر فيك .

تندفع بفعل طاقة لا تعرف مصدرها : ربما الموسيقا الخافتة لحفيف احتكاك أصابع الريس مسعود بالجنيهات التى تتوالى الواحد بعد الآخر . دائما يتوقف بشكل مفاجئ يقبض القلب وينزع القليل من الكثير ، يقدمه لك بإشارة حاسمة ومحايدة لكى تفسح طريقًا لمن يليك .

بعدها تستأنس بإعادة العد ، ببطء شديد ولذة تستبدل انقباض قلبك . تحاول أن تنسى أن جسدك صار ورقا وأن الورق سيصير خبزًا وسجائر .

السجائر تصير دخانًا والدخان يضيع فى الهواء ، وأصدقاؤك يحملون الجسد إلى ما تسمى حجرة ويضعونك فوق مايسمى سرير ثم يضعون قدميك فى ماء بملح ، وعلى رأسك كمادات ماء بارد ، يجلسون معك قليلا ويأسفون لحالك وحالهم ، ثم ينزلون إلى الشارع بما بقى لديهم من عافية ، وما تيسر من الورق .

يتركونك للظلمة والأفكار السوداء وأنين الجسد . تكتشف بحسبة صغيرة وبسيطة أن جسدك = ٦ جنيهات .

٦ جنيهات = ١٠ أرغفة + طبق فول + طبق سلطة + علبة سجائر + كوب شاى + بعض حلم .

والشاطر حسن ينام على صدرك ويتثاءب من أثر ضربة الشمس : سيدة الحسن والقلوب مهرها جبلان من ذهب . جبلان وليس جملين ، وتشرد فى الشوارع والحجرات المظلمة الضيقة المكتظة برائحة الآخرين . هجر لدفء البيوت . ما باليد حيلة ، للقلب أحكامه وللزمن - وياله من زمن - تدابيره .

وقفت على باب الله ، أسلمتك يده إلى قطار من حديد ، قلبه مجوف بارد رغم احتشاده بالبشر . يطير بك ، ينهب الأرض والأشجار وأعمدة الكهرباء وأعمدة التليفونات . يشق الأرض المزروعة والبور ولا ينحنى إلا للمدن الكبيرة .

الشاطر يغوص فى دفء لذيذ .

(٢)

مرغما ، حدقت فى دائرة سوداء فى سقف الغرفة فوق المصباح مباشرة ، تأملت البوص المحكم المرتكز على عروق الخشب الغليظة غير المحبوكة . من فرجة ضيقة جدًا بين بوصتين أطل برأسه ، واندفع بجسده الأملس المسحوب الزلق ، الضخم عند الوسط ، الرفيع عند الذيل .

رأيته يقف أمامى منتصبًا معتمدا على ذيله ، يحدق فىّ ، تخترقنى نظرته الغاضبة المتحفزة . يقف كجذع شجرة مقشور اللحاء . مفزع . .

يحيرنى انتظاره وصبره علىّ . قبضت عليه بيدى ، بقوة من السماء هبطت علىّ . كان يقاوم بعنف . بل ويضغط . كلانا مستميت على الآخر ، يايان قويان مضغوطان إلى حدهما الأقصى .

كان كل جزء فىّ يرتعد وينضح عرقًا وأنا أدفعه بعيدًا عن رقبتى ، وعينى لا تفارق النقطة الصافية العالقة بطرف نابه المسنون اللامع . كان صفاؤها خرافيًا وانسيالها شديد البطء

رغم حركته الهستيرية الملتوية على نفسها كأنه يستجدى طاقة جديدة لكى يفر من بين يدى أو يضغط علىَّ أكثر .

جاء سيدى أبو سليمان وانتزعنى من بين أنيابه . بلسانه لهس الدم النازف من كل جسدى ، ألبسنى عباءته .

وقال : اتبعنى .

فى لمح البصر كنا فى واد كبير ملىء بأفاع وحيات تتدافع نحوه ، تقبل يديه وقدميه ، وتتمسح به كالقطط .

وقال : اتبعنى .

ذهبنا إلى صحراء صريحة ، وقف أمام حجر كبير وضربه بيده فانبجست منه نافورة ماء بارد ، ارتفع الماء عاليًا حتى غمرنى . بيديه غسل رأسى ووجهى وصدرى .

وقال : اتبعنى .

ذهبنا إلى حيث الضوء طاغ وفوار . عناقيد النور تملأ الدنيا . تنطفئ وتضىء بسرعة فتتراقص عناقيد ممدودة ومشدودة بين أسطح البيوت وأعمدة الكهرباء .

زحام وتدافع حول عربات خشبية كثيرة مرصوصة على جانبى الطريق ، مشحونة بالفواكه والحلوى ؛ المشبك ، البسبوسة ، الهريسة ، الملبن ، الحمص ، الحلاوة . عربات أخرى رص فوقها بانتظام مجموعة من البنادق ينادى

أصحابها نداءاتهم الشهيرة : فتح عينك تاكل ملبن . عقود الخرز الطويلة الملونة اللامعة تتدلى من العوارض الخشبية الرفيعة . .

خلق كثير يتحركون ويتدافعون بين العربات أو يجلسون فى خيام صغيرة بدائية من أعواد البوص وملاءات الأسرّة ، أو يجلسون فى السرادق الضخم ، حلقات صغيرة حول دراويش يحكون عن معجزاته . حلقة كبيرة حول رجل يمسك بيده ورقة مفتوحة بها بعض حبوب صفراء تشبه الحمص ، كان ينادى بانفعال وآلية : صلى على رسول الله ، إحنا لا بنشحت ولا نقول لله ، الحبوب دى بعناها فى إسكندرية بسبعه جنيه وفى طنطا بسته ، لكن هنا بعناها علشان بركة « أبو سليمان » بجنيه واحد يا افندى . . بجنيه يا أستاذ . واحد يسألنى الحبوب دى بتعمل إيه . كل واحد فينا بياكل ، والأكل بيعمل حاجة بيضة على السنان وبعدين تنزل البطن وتعمل دود . الحبوب دى بتنزل الدود . حباية قبل الفطار على الريق كل يوم . ثلاث أيام بس وبعدها بطنك ميبقاش فيها ولا دودة ، لكن كلنا نقرأ الفاتحة على الخاين وابن الحرام اللى يعطى الحبوب دى لواحده حامل ،

لأن الحباية ممكن تنزل الجنين من البطن زى الدود بالضبط . مين عاوز .

ضاع منى فى الزحام الكبير ، بحثت عنه فى الجامع فلم أجده ، ولكنى وجدت نشوة مشعة على وجوه الناس الواقفين يتمايلون فى حلقات الذكر والذين يتساقطون واحدا تلو الآخر . الواحد منهم يتمدد على الأرض منتفضا كأن نارا لسعته .

أين أنت ؟

(٣)

مسحوبًا ، اتجهت إليهم ، وقفت بينهم ساكنًا للحظة ثم انسجمت بسرعة غريبة مع إيقاعهم الهادر .

اكتشفت أن هذا الإيقاع يسكننى منذ زمن بعيد ، جزء منه أنا . أنهكنى فى الابتعاد عنه والسعى إليه ، أعود إليه الآن بكل طاقتى ورغبتى وجموحى .

بدأت رأسى فى الاهتزاز ، تبعها جذعى ثم يدىّ . كل شىء يدور أمامى . الناس ، الجدران منمنمات الجدران ، فراغ القبة ، الباب الخشبى الكبير بنتوءاته البارزة المستديرة والمربعة والمسدسة ، وكذلك ضوء المصابيح الملونة فى الخارج .

الله . . حى

الله . . حى

ممدًا على الأرض أنتفض رأيته - عند السقف - على محفة بيضاء على شكل شجرة صفصاف . من بين أغصانها الرفيعة المتدلية كثيفة الأوراق ومعه صفية . للمرة الأولى

منذ زمن أراها امرأةً لا شبحًا أسود أو نقطة مظلمة فى المدى . امرأة حقيقية لها جسد وقلب ورغبة وإرادة . يستسلم لها بكل جبروته ونفاذه داخلى . ينام على صدرها المرتفع كقط سيامى أليف ، شبعان ، هادئ ، يلعق ثدييها ويمتص حرارة جسدها قطرة قطرة قطرة .

ثم يتجشأ ويغمض عينيه .

استيقظ ، من أنت ؟ من أين جئت ؟ لماذا أنت ؟ هل أنت محمد أبو سليمان ، جئت طائرًا من الصعيد أو الشام أو أى مكان فى هذه الدنيا ؟ أم أنت (أوليسيان كرنسكى) المهندس الرومانى القادم من بلاد البرد والثلج ؟ قتلك حبك أم جموحك ؟

هل أنت مسيح جديد جاءنا طائرًا ليخلصنا فوقعت فى ذات الشرك ، وسقطت مصلوبًا على سقالات بنائك الذى لم يكتمل ، من أنت ؟

لماذا أصلحت الماكينة وجبرت ساق الفتاة ، وختمت بكفك العجين ، وأنقذتنى من الثعبان وجئت طائرًا وعشقت فتاة من بلدنا وألهبت روحى .. شددت وثاقها إلى قبتك الخضراء ، لماذا ؟ لماذا سافرت إلى البلاد البعيدة وتركتها للنار تأكلها .

إن كنت رجلا قف ، أريد أن أتمكن منك ، وأنهشك بأسنانى و أضحك . أوسعك ضربا وألعق الدم النازف من بين أسنانك . أضرب وأضرب وأضمك إلى صدرى وأرتاح إلى صدرك ، أتسمَّع أنفاسك وأقبِّل يديك . .

إن كنت رجلا اظهر ، أرنى نفسك ، خذ بيدى واجعلنى أبكى . مر بكفك على شعر رأسى . . اغسلنى بمائك الطاهر الطهور ، اغمسنى فيه حتى رأسى . لا أريد التنفس إلا برئتيك . ضع يدك على صدرى . تكلم . . أى كلام . . فقط تكلم ، أخرج أنفاسك القذرة من بين أسنانك السوداء المتآكلة . . سأمزق جلدك بأظافرى ، بعدها سأصرخ : أغثنى . توقف وانظر إلى الغريب التائه ، كل القوافل رحلت وتركتنى . خذنى بين يديك . . أنا على العهد . أكون تابعك . . ظلك وامتدادك ومحدث الناس بأخبارك . يدى ممدودة ، خذها . لا تتركه للعراء الناهش .

العراء ينهشنى ، الرمال تنهشنى ، فقدها ينهشنى . وجسدى يدب فيه العطن ، ينحل ويذبل ويجف لا يهم . أنت . قف . اقترب أو ارحل .

الدنيا برد وهواء الليل أمواس تشق الجلد وتكنس الشوارع . أنا أرتجف .

لماذا تركتها تغرق أو تحترق أو تقطع شرايين يدها اليمنى أو تهوى من أعلى وتضيع فى بلاد الله الواسعة الباردة المشحونة بالسكاكين والأمواس والمرايا المهشمة .

لماذا تركتنى وحيدًا غير مردود النداء ؟

أين أنت ؟

(٤)

تأتى هى وتحملنى بين يديها ، يتحول شعرها المحلول إلى جناحى طائر كبير .. تأخذنى إلى البعيد البعيد .. تضعنى إلى جوار الساقية المهجورة وتنكسب علىّ بجسدها وحنانها الطامر . تضع الطعام بفمها فى فمى مهضومًا حلو المذاق .. أستحلبه وأستشعر أمانًا لم أعرفه من قبل .. لحظات ويكون الفردوس .

أتمدد فى الليل الرائق على العشب المبتل اللين ، وأرى البسمة على وجهها لأننى لم أخف من تحول عينيها إلى شقين بالطول ، بلا رموش أو حتى جفون تحجب الحمرة الوهاجة التى انطلقت خافتة تبدد سواد الليل كضوء فانوس أحمر .

مازال جسدها يبخ الصهد ، ويتشكل طوع خيالى . أحقق عليه النصر تلو النصر ، وأضحك من أعماق قلبى وأشعر بامتلاء واكتمال غير مسبوقين ، فتهب فى رأسى حكاياتهم الطويلة الكثيرة عنها .

في ليالى الشتاء الطويلة ، يتجمعون خلف الأبواب المغلقة وبعد العشاء يبدأ الكلام ، كلام يتبع كلام ، كلام يجر كلام ، ثم يكون الحديث عنها متناثرًا وخجولاً فى أول الأمر ، بعدها يتمكَّن ويتشعَّب ويتوهج مع نار الراكية تحت براد الشاى الأزرق منساب البوز .

كنت أتلقف كلامهم ساخنًا كأنما خرج لتوه من الفرن حيث يقف - فى قلب الليل ومحط الظلمة - قط أسود ضخم الجرم ، يموء بغلٍّ حارق .

تتمدد الحكايات برأسى . تختمر وتصير عظمًا ولحمًا فأستسلم لها ولهواء الليل القوى وسواده المخملى كجسدها المنساب على ساقى الممدودتين . جسدها محارة هلامية وصلبة فى آن . أتحسسها دون أن أراها . فتنطلق رائحتها التى تشبه رائحة اللبن الرائب ، ثم يتقاطر على أذنى همسها الشهى وكأنما أرادت أن تقول : أين كنت ، وكأنما أجبتها : كنت أبحث عنك . وكأنما سمعت فقالت باستفهام أثقلته الرغبة فى النوم ووجدتنى ، فلم أجب .

(٥)

تقول جدتى أننى لم أغادر الحجرة منذ شهر ، لا أكلم أحدًا أبدًا ، وأصرخ وأضرب رأسى فى شباك السرير ، كانت تضمنى إلى صدرها وتحاول جاهدة أن تروض الجسد الكبير المتمرد الساعى للانفلات . وقت طويل مر علىَّ بين ضباب مختمر ، لا أراهم ، لا أسمعهم ، ولا أفتقدهم . كنت مغموسًا حتى شعر رأسى فى حنانها الغامر . تسبل علىّ شعرها الأصفر الطويل ، وجسدها المكين الطيِّع ، دائم التشكل والتحور .

كانت تقتحم جسدى ، تملأ فراغاته الكثيرة فيتسع صدرى ، فينتفخ بهواء طازج بارد ويصير جسدى خفيفًا ، بل غير موجود أو موجود ولا أحس به . ليس له حدود أو حتى معالم .

لها جسد أيضًا ، لكنه من عجينة أخرى ، كما أن رائحته لاذعة ، قابضة ، مثيرة للقشعريرة ، ونافذة إلى القلب . أحاول أن أتذكر أين نشقتها من قبل ، بل كنت منقوعًا فيها ،

وكانت تتدفق إلىّ من فمى وأنفى وخلايا جسدى بإيقاع منتظم وضربات قلب قريب . دافئة هى ، جزيرة صحراوية ، رملها أبيض ناعم ، أتقلب فى خشونته ودفئه الدسم تحت ضوء الشمس الذى رشحته السحب الرمادية الخفيفة فجاء صفيًّا وناصعًا دون حرارة . أعرف أنها ابتعدت وتركتنى هيكلا عظميًّا فارغًا هشًّا .

تتركنى فأراهم حولى مشدوهين ممتقعى الوجوه من نداءاتى المتكررة اليائسة . ألمح بينهم رجلاً غريبًا أسمر ، له عمامة أزاحها للخلف قليلا ، وكأنما عن عمد لتظهر علامة صلاة كبيرة بيضاوية مقشورة الجلد على جبهته .

له رائحة نفاذة لا تطاق ، ربما كانت السبب فى هربها بعيدًا ، كما أن لحيته طويلة مدببة ، تخلو مناطق كثيرة فيها من الشعر . لماذا يمسك عصًا غليظة ويهوى بها على جسدى ؟! لم تكن ضرباته تؤلمنى ، وكأن جدارًا من حديد حال بينى وبين عصاه ، أو أن جسدى صار بعيدا عنى ، صار لغيرى يتصرف من تلقاء نفسه أو بإرادة ليست إرادتى .

كنت أراه وهو جاثم على صدرى ، يحاول فتح فمى ليسكب سائلا له رائحة النعناع فى جوفى أدهشتنى صلابتى

فى مواجهة كلاباته المستميتة على ملتقى فكىّ . كانت جبهته تتفصد بحبيبات عرق صغيرة ، وترعد يده ويهتز كرشه الصغير المدور .

كان خفيفًا كريشة ، غباؤه لا يطاق . لماذا يحاول ويصرّ كل هذا الإصرار على فتح فم ، ماذا سيجد إن فتحه . لو أن لى سيطرة على جسدى - ذلك المرمى بعيدًا - لفتحته له ، بل وشققت جلدى وفردت أحشائى على الأرض ليبحث كيفما شاء عن ضالته .

ضالتى أنا بعيدة ، شاردة ومراوغة . لو قبضت عليها لسلسلتها إلى عامود الساقية وأوسعتها ضربًا حتى تستسلم وتذعن لإرادتى . سيكون جسدها أحمر بعقد دم وكدمات زرقاء وخضراء . سينشع دمها ممزوجا بقيح حين أحتضنها وأضمها إلىّ وأضغطها . لن يمنعنى عن هذا ملمسه أو رائحته . بل ستلهب رغبتى وتدفعنى لاستخراج رائحتها الحقيقية الكامنة فى قرار سحيق .

رفت عينى اليمنى فعرفت أنها قريبة جدا . أشم رائحتها ، وأستطيع تحديد مكانها ، إنها تتحرك فى اتجاهى ، تقترب . تسرع الخطو لأنها تعرف أننى هنا

أنتظر . تأتى وتشيع فى نفسى بهجة حقيقية باقية . تخطو نحوى ، بل تتقافز بحركة هلامية لكنها قوية الاندفاع . سأستيقظ من نومى على صوتها الرخيم الشهىّ ، تغنى أغنية عذوبتها توجع القلب ، أغنية لى أنا ، عن المحترقين بنار المحبة ، عن فارس ألجم النار واعتلى صهوتها وكبح اندفاعها فى حطب شديد الجفاف فى صيف صريح . كان صهيلها طقطقات تعلو فتنفث دفقات دخانها الأسود التى تعلق بالهواء الكسول .

أنتِ يا من فى البدء نشرتِ النور ، وأضأتِ الكهوف ، وأبعدتِ الوحش الضارى وألهبت خيالنا .

يا طوق الأرجوان

أين أنتِ ؟

ومتى قابلتك ؟

هل كنت فى دائرة من عشر فتيات ، كل واحدة تمسك كف الأخرى ويدرن فيرتفع شعرهن الكثيف المقصوص باستدارة محكمة ، وترتفع فساتينهن البيضاء الشفافة فتظهر سيقانهن شديدة التشابه ، وينشدن أنشودة عن مرحهن الأبدىّ وشوقهن لبنى البشر الجبناء الذين يفرون أو يموتون

مكانهم . وهم إن صبروا وتماسكوا . . كانت الجنة .

كيف ميزتُك من بينهن ، وسعيتُ إليكِ ، شققتُ الدائرة وتوسطتها . كان الدوران شديدا وكان عطشى شديدا وكانت الصحراء بلا نهاية ، وجسدى تسرى فيه الشروخ ، يتشظى ويتفتت .

أنتِ ملح الحواديت للصغار ، ونار بصدور كل الرجال . كلهم خافك وتمناك .

قالوا هى الجسد الرخام والقلب الحجر والشهوة العارمة ، على صدرها بكى الرجال واستبدت بهم الشهوة وذاقوا الموت مكبرين لها وله .

قالوا هى الفاكهة المحرمة ، العذاب القائم المقيم ، الحياة بحديها وشفرة الموت .

أين أنتِ ؟

الفصل الثامن

(١)

هذه القرية غزل عنكبوت ، تستقبلنى بنعومتها القاهرة ، وتفتح المساحات كى أغوص فيها ثم تجذبنى وتشتد علىّ ، تغمرنى بعصارتها الهاضمة فأذوب .

أتوزع فى الشوارع السبع والبيوت الطين القش الدفء الترعة المصرف الكافور الصفصاف ، نوار الفول يوجع القلب بياضه المغسول ونقطته السوداء الساحرة ، البرسيم بحر خرافى خضرته داكنة تعب الروح لما يشتد قليلا فيهتز متماوجًا طفوليًا .

طريق ترابى طويل تصطف على جانبيه - بنظام هندسى مرن - ٤٧٦ شجرة كافور ، كلها عتيقة سيقانها ضخمة وفروعها تطير وتتشعب فى الهواء وتتلاقى ؛ فتظلل الطريق وتحجب الشمس إلا قليلا .

خيوط أشعة الشمس تتسرب من بين الأوراق الكثيفة المتشابكة فى تلاق حميم ، وتطرز التراب اللين بمنمنمات صفراء ، تكويناتها العجيبة تتحرك مع حركة الشمس ومشيئة

الهواء . الهواء يأتى من البحر وقبل أن يصل إلينا يكون قد حمل رسالة عطرة من جنينة الليمون بحرى البلد .

فى الثلث الأخير من الطريق ، ناحية البلد ، كافورة عجوز ، أكبرهم على الإطلاق وأعلاهم ، ساقها الضخمة مقشورة اللحاء فى أجزاء كثيرة منها تحمل قلبًا رسمه الصبى ، عكف عليه فى إحدى العصارى بمسمار صغير . حفر غائرًا فى اللحم الذى نزف فارتجف ، ورفع عينيه بخجل وانكسار إلى أعلى ، مس الجزء المقشور الأملس بكفه الصغير مسًا خفيفًا متتابعًا . وكان كلما مر عليها انقبض قلبه ، وكأن مسمارًا طويلا انغرس فيه ودخل إلى العمق . يسرع الخطو وينظر إلى القبة الخضراء التى تظهر من بعيد .

قطع الطريق بعدها آلاف المرات .. آلاف آلاف المرات ، ماشيًا وراكبًا الحمار أو الجرار . فى حر الصيف ذى الهواء الراكد والشمس الحامية ، وظلام ليل الشتاء والطين الزلق والقطرات المتساقطة من أوراق الشجر عند الفجر . مشى وحده ومعهم ومعها متخاصمين أو متشابكى الأيدى والقلوب ، وجرى خوفًا من العفاريت وعواء الذئاب وصوت الريح وعصا جدته إن تأخر . آلاف المرات ، ولم

ير هذا القلب الناقص الذى تحدد وتمدد وكبر حتى اكتمل . واختلف لونه عن لون نسيج الساق ، كما برز وصار ناتئًا .

ندبة كبيرة مؤلمة ، جرح غائر التأم ، لكن الجلد لم يعد كما كان . . ولن يعود . . ينشق الجلد فيرتعد ويطفر الدم ، تتساقط قطرات كبيرة ساخنة متوالية فجة الاستدارة ، ثم خيط واحد رفيع . . يرتعد الجسد . . يتدفق الدم . . يسيل على الكف . . يجرى على الأرض ثعابين صغيرة عمياء خرجت لتوها من الجرح أقصد الجُحر . ثم . . يتوقف ، يتخثر ويجمد ويصير داكنًا وله رائحة .

رائحته تملأ الهواء ، وترسم العيد الكبير فى اليوم الرابع ، غدًا ليلته ، وأنا فوق السطح مع جدتى وخالتى ، أمسك لهما « الفراخ » والبط . خالتى تمسك الرقبة والسكين الحاد فى يد جدتى يمر ، اللهم صبَّرك على ما بلاكِ ويكفينا شر ذنبك وخطاكِ حلال الله أكبر .

الصوت العصبى يحث الصبى المبهوت على الإسراع . الرفرفات القوية اليائسة تهدأ ، ثم تهمد وبقعة الدم تزيد وكومة اللحم ترتفع .

الصرخات تزيد ، وكذلك ألم البطن والارتجاف والنوم

المتقطع المغزول بالكوابيس واليقظة فى قلب الظلمة . ظلمة حالكة مخيفة يقف لها شعر الصبى ، وهمهمات بعيدة لجيش من الرجال ، يهتفون .. الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا ..

ثم يأتى نوم تليه يقظة أخرى ، يطير بعدها إلى الصالة والدفء المخزون المجدول بصمت شهى .. يفتح الترباس الضخم وينزعج من صريره . يفتح الباب بهدوء ويخرج إلى الشكمة والهواء المبلل بالندى وصوت العصافير الخافت ، والضوء الفضى الشفاف .

يفرك عينيه ويعب نسمات باردة بها رائحة يوم شديد الحرارة . يجلس على الكنبة ضامًا ركبتيه إلى صدره ويحيطهما بذراعيه .. يستعذب برودة خشب الكنبة تحته ويتطلع إلى القبة ، لكن صياح الديوك ونداءاتها الطويلة بعضها لبعض ، يقتحم عالمه الصغير ويفسد عليه خلوته .

(٢)

كنت أَخْيَبَ مَنْ لعب الاستغماية فى البلد .

كنت - دائما - ألجأ إليك ، إلى مقامك ، أقيم لحظات يأتون بعدها للقبض على ، يختفون هم وأظل أبحث عنهم ولا أجدهم أبدا . بحث يدوم حتى غياب الشمس .

مع الشمس الجديدة ، لعبة جديدة ، ألجأ إليك ، إلى مقامك ، أقيم لحظات يأتون بعدها للقبض على ، يختفون هم ، وأظل أبحث . . .

كل مرة ، أسمع أصواتهم بالخارج . أقول ستمتد يدك وتحجبنى عنهم ، أو تنشق فوارق البلاط الأسمنتى الغليظ وتبتلعنى ، أو تنفك تشابكات أوراق الشجر الخضراء على الجدار ثم تتشابك من جديد حولى ، كنت أنتظر أن تحولنى نجمة تضيع بين النجوم الكثيرة والأهلة التى تدور فى فلك الغرفة أو تلك المرسومة بالأزرق على زجاج النافذة الوحيدة الصغيرة العالية .

إنهم بالخارج .. أسمعهم .. لحظات ويدفعون

الباب ، الباب يصر وبدنى يرتجف ، يدخل كبيرهم يشير إلىّ بسبابته ويثبتنى ، يأتون بعدها للقبض علىّ . وأظل أبحث . .

فى المرة القادمة ، لن أختبئ عندك ، بل سأذهب إلى صفصافة فى طرف البلد ، ستسبل علىّ أغصانها وسترها ، ولن يعرف أحد مكانى ، ولن أبوح به حتى لك .

أتذكر يوم صفية ، طلبت منك أن تحميها من احتراق قادم . لم تفعل شيئا ، لم تجعل النار بردا ، بل كانت وحشًا . وحش جثم وطاردها بشبق جارف . دفعها إلى الجدار وألقاها على الأرض . كانت تصرخ وتدفعه بيديها وكان يأكل أعضاءها قطعة قطعة قطعة .

كان يلهسها بألسنته الكثيرة الطويلة مشقوقة الطرف ، يعلو عليها ، ويعريها وتتأوه ويضحك ويكبر . . كانت تأوهاتها دوائر تنتشر فى المدى ، ما تلبث أن تتلاشى دائرة فدائرة .

هل سمعتها ؟ لماذا لم تفعل شيئا ، أى شىء ، لقد توسلَتْ إليك وتوسلتُ أنا كذلك .

أين كنت ساعتها . . ربما لم تكن موجودا على الإطلاق .

ليلتها قررت أن أحطم زجاج نافذتك الأزرق ، ليدخل عليك ضوء الشمس كما هو ليلهبك فتهرب وتتركنا ، لكننى لم أستطع وربما لن أستطيع .

أمسكت الطوبة وتحينت فرصة لا يرانى فيها أحد ، لكننى تراجعت ويدى فى الهواء . لم ترتجف يدى بل كل بدنى ، وتقلصت أحشائى . ألم مباغت ، خفيف لكنه مخيف . لم تسقط الطوبة من كفى . كنت أستطيع - رغم الألم - أن ألقيها وأجرى ، بل إنى سمعت صوت تحطم الزجاج ، وصوت مطارق غليظة ترتفع فى الهواء وتهوى وتفتت كل شىء . . تسويه بالأرض .

الطوبة صارت ترابا ناعما بين راحة يدى وأصابعى الضاغطة .

خذلتنى مرة أخرى . .

وها أنت تضحك بصوت عالٍ مبحوح يقطعه سعال قوى ، يرتجف له صدرك الواسع ، لكننى زممت فمى وضيقت عينى اليسرى كأشرار السينما وضربت راحة يدى بقبضة يدى الأخرى .

مشدود الوثائق أنا إلى قبتك الخضراء .

هالات حنين تتفجر داخلى حين أراها على البعد . هى أول ما يظهر من البلد ، وهى السحر حين اكتمال القمر ، أو هبوب نسمة باردة مباغتة . هى ما كان يجمع شتاتى ويشد أوصالى فأجرى نحوها ، أتطلع إليها من كل الزوايا .

الآن بهتت وسقط معظم جيرها ، وكذلك اخشوشن خشب سياجك وظهر لونه الأصلى وصارت حجرتك ضيقة جدا . ضيقها لا يُحتمل . أتذكر اتساعها الخرافى فيما مضى ، كانت تسع الكثيرين مرة واحدة ، عشرات بل مئات من الملهوفين المنادين باسمك والمتشفعين به . كانوا طيورا مذعورة سوداء ممتقعة الوجوه . الآن تدور حولك فتيات يرتدين الجينز والاسترتش . على وجوههن حمرة المساحيق ، يدرن حولك دورة واحدة بملل ظاهر ثم يخرجن وهن يسوين شعورهن المكشوفة ويبتسمن ببلاهة .

لا أثر للحصر والقش المفروشين فى صحن الجامع وحوله . لا خيام أو مسرح أو فرقة خلف المنشد ولا نساء بدينات يسقين - من أجلك - عصيرا أو مشروبات .

الطريق إليك صار مرصوفا لكنه خاو إلا من قلائل غادروك مبكرا ، تاركين أصحاب المراجيح والبنادق وبائعى

البسبوسة . كان الحاوى يرتدى قميصا وبنطلون جينز ويمسك كاميرا حديثة وينادى : صورة للذكرى .

كان فى زمان مضى يقف فى منتصف دائرة كبيرة محتشدة ، عاريًا إلا من شورت صغير مخطط بالبنى والأزرق ، ومعه طفل صغير عار تماما ، يدور حول كرتونتين كبيرتين وجراب أبيض متسخ وينادى بصوت قوى حماسى يثير قشعريرة فى البدن : يارب . . ياخالق الليل والنهار . . ناكل الإزاز والنار . . ناكل اللقمة مغمسة بالتراب . . بالحلال يارب .

كان يدور وسط الدائرة بجسده الأسمر الذى ينضح عرقا وقد ضربته الشمس ، ويرفع الطفل الصغير فى الهواء ثم يضعه على لوح المسامير ، ويقف على جسده ، تنغرس المسامير فى ظهر الصبى وهو يهتف ويطلب من الولد أن يردد : يارب فى قلبى مناشير وفى جسمى مسامير علشان آكل لقمتى بالحلال . . يارب .

كان يضغط ويضغط ، يتقافز فوق قطعة اللحم العارية مطموسة الملامح . ولما يقف الولد يكون ظهره مخططا بالطول وبالعرض بعلامات رءوس المسامير دون أن ينزف

قطرة دم واحدة . ثم يخرج من الكرتونة صفيحة صغيرة صفراء بها جاز واضح الرائحة ، كان يغسل وجهه بالجاز ويشرب منه جرعة ويحتفظ فى فمه بجرعة ، يكون الولد قد أحضر شعلة صغيرة يناولها له . كان يزم شفتيه ويبخ الجاز باتجاه النار فيطير فى الهواء لسان اللهب إلى السماء ولا يرجع .

بعدها ، يرفع جرابه فى الهواء ثم يحل عقدة الجراب ويفرغ ما به على الأرض ، كومة كبيرة من الثعابين الملتوية على بعضها بعضا ، يمسك الكومة بيديه ويبعثرها على الأرض فتنتشر الثعابين فى دائرة كبيرة لا تتخطاها . يمسك أكبرها ويلفع به الصبى ثم يرفعه فى الهواء بكلتا يديه ، يدور به ويقرب فمه من الناس فيتراجعون ويضحك ويقول : بوسه يا فتحية . فأدرك أنها أفعى ، واضحة الأنوثة حتى .

بعدها يمسك دفًا ويضرب عليه بينما يدور الصبى بجراب صغير من الكستور مفتوح الفم على اتساعه يتلقى قروش الواقفين . كان يغنى أغنية عن العراة الذين يمشون فى أرض الله بلا ثوب يستر الجسد ويحميه من نار الشمس وأمواس الشتاء .

أغنية حزينة عن وعد ومكتوب ، ونصيب إذ يصيب لا مهرب منه ، وكان الولد الصغير يردد خلفه بآلية وحماس فاتر وهو يعيد الثعابين إلى الجراب .

كنت قد قلت له : خذنى معك ، أكون تابعك أو ابنك وتكون أبى الذى لم أره .

لكن قبضة جدتى كانت قوية وجسدى يكنس الشارع .

جسدها يجف ، ينحل وينحنى ، لكن قبضتها مازالت قوية ، خرافية .

بجسدها النحيل تنحنى لتكنس الصالة بالمقشة البلح ، وترش الصالة بالماء بعد أن تكون قد عجنت وخبزت وحدها ، وأعدت إفطار جدى وأخرجت له الحمار أمام باب الدار . تقف له حتى ينصرف وتتبعه بنظرها حتى يغيب فى انحناءة الشارع . ثم تعود لتطعم الدجاج وتزغط البط وتوقظنا لنفطر ونذهب إلى المدرسة .

حين نسافر ، تغلق باب الحجرة من الداخل وتبكى كل الغائبين . لم تودعنى أبدا ، كانت تسمع طرقاتى على الباب وندائى الملهوف اليائس وأسمع نهنهتها . وحين أعود تفتح لى ذراعيها وصدرها . تمسح رأسى وتقسم أنها كانت تعرف

أننى سأصل اليوم وأنها - لهذا السبب - ذبحت بطة . تبعدنى عنها قليلا ممسكة بوجهى بين كفيها . تتأملنى وتضمنى من جديد وتقبلنى . لقبلاتها صوت مسموع وبلل خفيف أحبه .

تمسح دموعها وتمسح صدرى وتنظر إلىَّ بابتسامة عذبة .

من أين هذه النظرة ، كيف هذا الدفء ، هل بصدرى حزن ؟

يتسرب ، كله يتسرب لما ألتحم بها وتضغطنى بيديها فأبكى ، بل أنفجر بالبكاء وأقبل رأسها ويديها . وقبل أن أنصرف تقول لى : افتح درج الدولاب ، فيه خرطة بسبوسة ليك .

قدرنا أن نرتحل ونتغرب وننبش أرض الله بأظافرنا . وقدرك أن تبكى وحدك لحظة الوداع وأن تجعلينا نبكى بين يديك ونتخلص من الشحنة الناهشة بالصدر .

(٣)

الشباك مفتوح والليل يهبط . النجوم تبزغ - الواحدة تلو الأخرى - صغيرة ، ضوؤها عليل ، لكنها - معا - تشد أوصال السماء ، وتنبئ بغد غير ماطر . حركتها الدائبة تضع قانونًا للحضور والغياب ، مواقيت للحب والهجر والرحيل .

على نورها الخافت المبارك ، يقبض الولد كف البنت ويجرى - مضروبًا بالخوف والارتباك - إلى ظلام الضريح المطروز برائحة بخور عميقة ، ضاربة فى البعد .

ينشق الولد رحيقًا مختومًا طازجًا بين رجفة وأخرى ، بعدها يكون الجسد طلسمًا مفكوكًا والقلب مشدودًا للقلب ومعتصمًا بالظلمة .

فى الظلمة تتحرك أشياء كثيرة ، بل ترقص .

صفوف من الرجال والنساء ، أشباح سوداء ، هياكل عظمية مجوفة . هى ترقص أيضًا ، رقصة أخيرة مميتة . النار حولها وردة كثيفة الأوراق متداخلة الألوان : الأزرق

الأخضر الأصفر الأحمر . ألسنة ممدودة متراقصة .

هل كانت تصرخ ؛ أجل . . لا . . ربما .

كان وجهها شديد الاحمرار ، بل اصفرار أو بياض شاهٍ به بقع بنية وسوداء ولسان يمتد ليلهس وجنتها ، طرفه أصفر كثيف ومنبته - عند الكتف - أزرق .

كانت - فى فورة الرقص - تتكور على نفسها ، تسقط وتنهض . تحاول الجرى والالتصاق بالجدار ، وشفط الهواء بفمها الصغير . كفها يضرب صدرها ورأسها ، يلتف ويضرب الظهر ليسكت النار . أصابعها تنفذ فى السياج الخشبى ، بين تكوينات العاشق والمعشوق والمحترق . أصابعها تلتقط مشبك الغسيل من فمها وتشير إلى الواقف ينثر الفول للحمام الهادل وتمر فى شعر رأسى وتدور فى أرضية الحلة السوداء فتعيدها فضية تضوى .

الأصابع تمتد ، تحاول النفاذ / الوصول / العناق . تضرب وحدها الفراغ وتقاوم برد الشتاء وبرد الحبيب / الغياب .

كانت أصابعها - فى وقت آخر ، ومكان آخر ، وبصيغة أخرى - ناعمة ، مفعمة بحرارة ، تصلنى عبر المنضدة

المستديرة والفضاء المسكون بأنفاسها . أصابع لينة ساخنة ، ممدودة مستسلمة ، صغيرة ، بكر ، دسمة ، متباعدة قليلا ، ترتعد قليلا .

لحم بنصرها مضغوط بدبلة ذهبية تختفى خلف خاتم على شكل فراشة تهفو إلى الفرار ، بل وتسعى إليه ما وسعت .

كادت يدى تنزلق فوق الحرير لولا نتوء يرتفع قليلا ، ويختلف لونه قليلا عن لون جلد ظهر الكف .

نظرت إليها . . إلى عينيها العميقتين الذكيتين ، بحثت عن الكبرياء القديم الذى أحببته .

قالت : جرح . . هذا الجرح أنت . . مجروحة أنا . . ميتة .

قالت : أين كنت ؟

فى عينيها عتاب قاتل ، ينصبُّ علىّ كموجة . موجة كبيرة عالية ، موجة زرقاء داكنة ، حوافها بيضاء مطرزة بالزبد . تضرب الشاطئ وتنسحب ، لكن رذاذها يرسم الخوف شرائح ملونة كثيرة مضغوطة ، خوف جرف ، انحداره شديد ، يؤدى إلى هوة عميقة . . عميقة .

خوف من الله والشيخ ومقشة جدتى وكف خالى وصوت

المديرة وناموس الإسكندرية وظلمة البحر وجنية الساقية وسير الطاحونة وثعابين البرج . . و . . والنار . . ورقصة النار .

نومى كوابيس متصلة ، متنوعة . لكن التنوع لا يحمل إلا صيغة واحدة : مطاردة لا تنتهى وهرب مستحيل . مطاردة تتخطى النوم إلى اليقظة ، فأخاف النوم واليقظة وأخاف أكثر أن أستيقظ فى الظلمة القارسة المشحونة بكلماتهم . كلماتهم تأتى مندفعة مجمعة ملضومة معًا : العشرة منك بقرش . . نحن براغيث الأرض . . الحب ليس لنا . . نحن براغيث . . لست قديسًا . . لا خلاص . . ليل الغريب ظلمة . . المدير طرد أختى . . أنت عارف أبوه مين . . جسدك يدب فيه العطن . . العشرة بقرش . . أنت زعلان . . بحب الياسمين . .

أحب رائحة الياسمين ؛ لأنها - حين تستبد بى - ترسمك فى الهواء ، أنت فقط . لكن الصورة عندما تكتمل وتصير لحمًا ودمًا تشب فيها النار . نار باردة باهتة ، لكنها تحرق ، تجوس فى اللحم وتكبر ، لا تنقص أبدًا ، ولا تكف عن المطاردة وصوته يتردد داخلى .

كان قد قال لى - بعد أنكرنى ثلاثًا - لا تهرب من النار ، إن هربت منها طاردتك .

النار طيبة مباركة . أقبل عليها ، روضها ، واعتلِ صهوتها دون سرج أو لجام .

(٤)

جدتى تصر أن اسمه الشاطر حسن .

محمود ، حسن ، أو حتى على ، لا يهم . طول عمرك يا ستى تنادينى يا واد يا محمود . كنت أغضب وأضرب الأرض بقدمى وأزعق : أنا اسمى نصر مش محمود .

الآن لم أعد أغضب ، بل ربما لم أغضب أبدًا .

تقول أيضًا : أنه تزوج ست الحسن بعد أن قتل الغول ، وأنهما عاشا معًا ما بقى لهما من عمر فى تبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات .

لا تعرف أن الغول صار ضخمًا ، له ألف رأس ، وألف ذراع وألف ألف يد ، ولم أقل لها أنه - الشاطر - لما عاد - بعد أن تأخر كثيرًا - عرف أنها ملت الانتظار ، ورفض أبناء الأمراء والملوك والسلاطين ، وإلحاح أبيها ، وكلام أختها الكبيرة المجربة عن الأيام التى تذهب ولا تعود ، والذى يذهب وقد لايعود .

وفى ذلك الوقت ، كان الغول قد أحضر عشرين جبلا

من ذهب ، ووقف بالباب . وحدث بعد ذلك أنها صلت صلاة الاستخارة ووافقت وتزوجته وأنجبت منه سبعة ذكور ، أسمت الأول محمود وأحبته كثيرًا .

قلت لها بعد أن وضعت رأسى فى حجرها : احكى لى حدوتة ياست ، لكنها قالت بصوت عالٍ وغضب مفتعل وهى تدفع رأسى بيدها : ابعد عنى . . أوعى كده .

- حأجيب لك خرطة بسبوسة .
- ونشوق ؟
- ونشوق كمان .
- وتأخدنى يوم الجمعة للمقام ؟
- حاضر .
- شوف يا سيدى . . صلى ع النبى .
- عليه الصلاة والسلام .



الفهرس



صدر مؤخرا من هذه السلسلة

* السلسلة غير ملزمة برد أصول الأعمال سواء نشرت أم لم تنشر .

* ترتيب النشر يخضع لاعتبارات فنية .

تكتنز هذه الرواية بالكثير من الخبرات الإنسانية والجمالية ، أتاحت لها أن تتحقق - روائياً - رغبةُ الكاتب فى اقتحام (الإنسان) ، والبحث - من خلاله وبه - فى تصاريف الحياة والقدر ، متأملاً صعوده وسقوطه ، رغبته الدفينة فى الاحتماء من الخوف ، وسعيه الدائب لإدراك الطمأنينة ، وإخفاقاته المتتالية التى تجعله يعيد الكَرّة مرة تلو مرة كسيزيف فى الأسطورة الإغريقية .

تقلب الرواية صفحات (الإنسان) تلتقط خرافاته وأساطيره ، محاولاته الحارة لاستعادة كبريائه عبر شبكة من الحكايات ، ينسجها الكاتب ببراعة .



الثمن : جنيه واحد